

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01081 7850

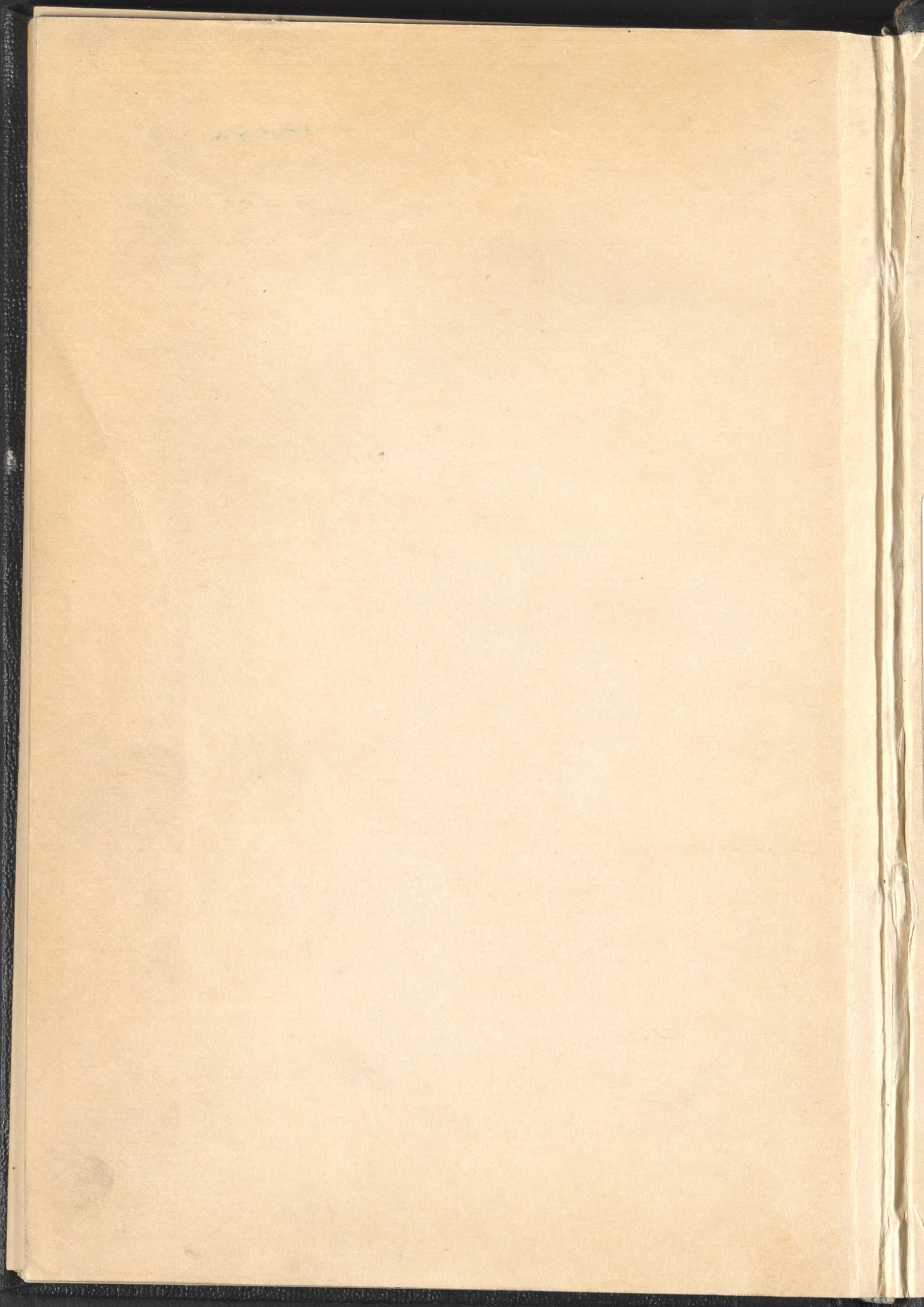
P
10
W3
18

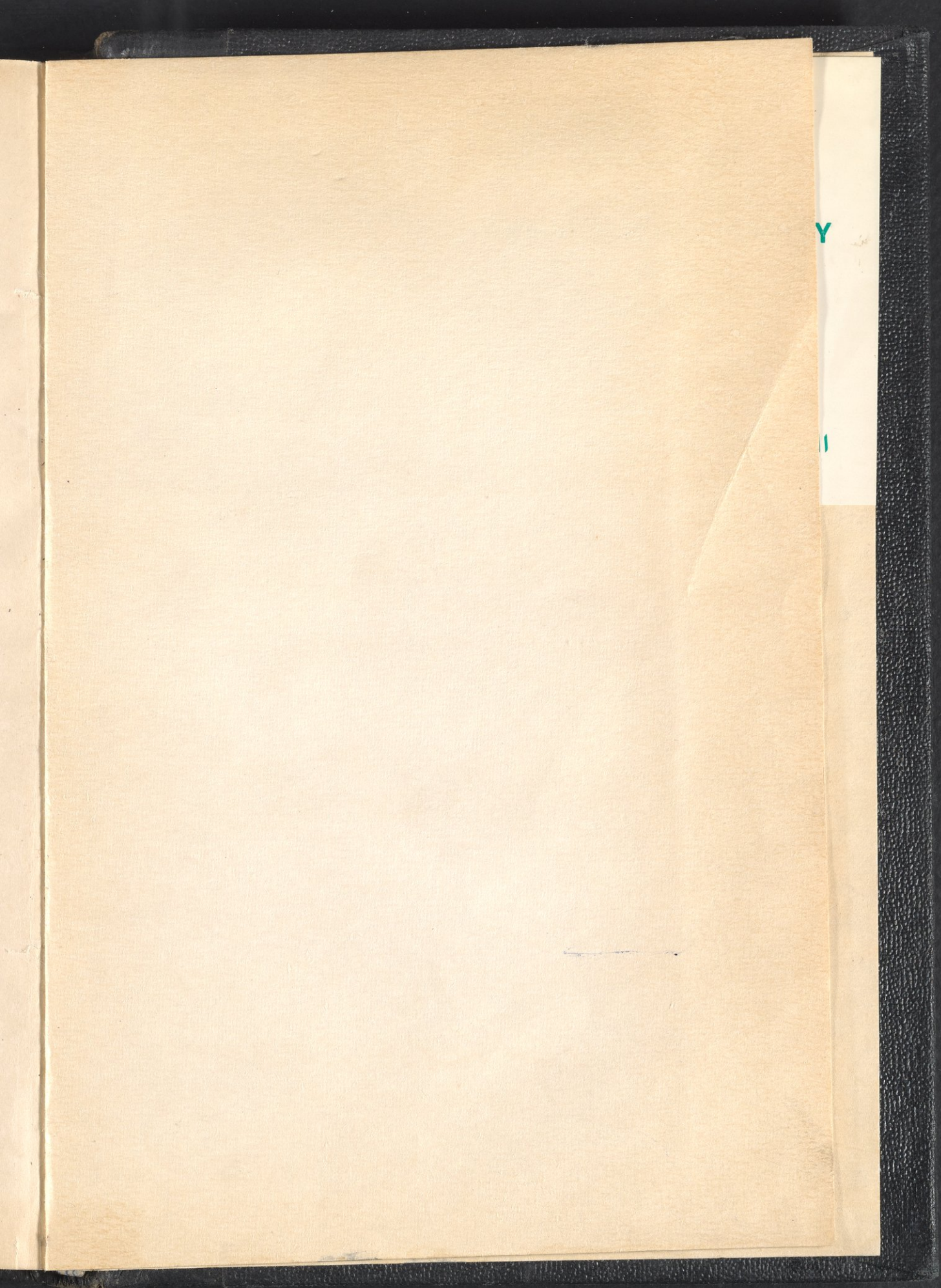
ID 643 56



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة





نشأة اللغة عند الإنسان والطفل

الى زميلنا
الأستاذ الدكتور جرجس
مع خالص التحية

تأليف

الدكتور على عبد الواحد

دكتور في الآداب بجامعة باريس
أستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

محمد الوائلي

P

105

W34

1947

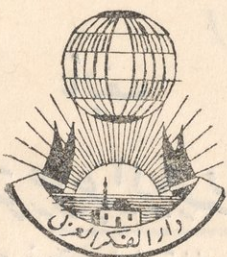
الطبعة الأولى

الناشر: دار الفكر العربي

القاهرة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

OCLE
122899594

B 13231492
15095678



دارالکتب و اسناد

36584

کتابخانه ملی و اسناد

۷۳۶۱۶ - ۲۲۶۱۵ قهقهه

بسم الرحمن الرحيم

مقدمة

للغة نشأتان : نشأة حينما أخذ الإنسان يلفظ أصواتاً مركبة ذات مقاطع وكلمات متميزة للتعبير عما يجول بخاطره من معان وما يحسه من مدركات ؛ ونشأة حينما يشرع الطفل يقلد أبويه والمحيطين به فيما يلفظونه من مفردات وعبارات فتنتقل إليه لغتهم عن هذا الطريق .

فعلى أية صورة حدثت النشأة الأولى ؟ وكيف تتم النشأة الأخرى ؟ هذان هما السؤالان اللذان سنجيب عليهما في هذا الكتاب .

وسنستعين في الإجابة عليهما بما هدتنا إليه دراستنا وتجاربنا الخاصة وبأهم ما قاله بصددهما أئمة الباحثين من علماء الغرب والشرق ، مع مناقشة آرائهم وبيان ما ينطوى عليه كل رأى منها من مطابقة للواقع وانحراف عن حقائق الأمور .

فكتابنا ينحصر في بابين : أولهما في نشأة اللغة عند الإنسان ؛ وثانيهما في نشأة اللغة عند الطفل .

وسنمهد للموضوع الأساسى في الباب الأول بفصلين نشرح في أحدهما أنواع التعبير الإينسانى وفي الآخر اختصاص الإنسان باللغة ومراكزها ؛ ثم نقف الفصلين الثالث والرابع على الموضوع الأساسى نفسه فندرس فيهما نشأة اللغة ونشأة مراكزها عند الإنسان ؛ ونختم هذا الباب بأربعة فصول أخرى نعالج فيها أموراً هامة مكتملة لبحوثه : فنعرض في الفصل الخامس

للمراحل الأولى التي اجتازتها لغة الإنسان عقب نشأتها وما انتابها من
تطور في هذه المراحل ؛ وفي الفصل السادس للفصائل التي انتهى إليها
الآن تطور اللغات الإنسانية وتشعبها ؛ وفي السابع والثامن لوجوه الخلاف
والمشابهة بين هذه الفصائل .

وأما الباب الثاني فسنمهد كذلك لموضوعه الأساسي بفصل في أنواع
الأصوات والتعبير في الطفولة ؛ ثم نقف الفصول الأربعة التالية على
الموضوع الأساسي نفسه (فندرس في الفصل الثاني المراحل التي يجتازها
الطفل في أصواته وتعبيراته ونشأة اللغة لديه ، ونعالج في الفصول الثالث
والرابع والخامس العوامل التي تتوقف عليها نشأة اللغة عند الطفل والدعائم
التي تعتمد عليها هذه النشأة) ؛ ثم نربط في الفصل السادس بين موضوع
هذا الباب وموضوع الباب السابق فنبين وجوه الشبه بين نشأة اللغة عند
الطفل ونشأتها عند الإنسان ؛ ونختتم هذا الباب بفصل تطبيقي نشرح فيه
طرفاً من وجوه الانتفاع بدراسة اللغة عند الطفل في شئون التربية
والتعليم ؟

شوال سنة ١٣٦٥

سبتمبر سنة ١٩٤٦

على عبد الواسع والي

الباب الأول

نشأة اللغة عند الإنسان

الفصل الأول

أنواع التعبير الإنساني

للتعبير الإنساني طرق كثيرة يرجع أهمها إلى قسمين رئيسين :
(القسم الأول) التعبير الطبيعي عن الانفعالات : — ويشمل جميع
الأمور الفطرية غير المقصودة التي تصحب مختلف الانفعالات السارة
والأليمة : كالصراخ ، والضحك ، والبكاء ، وتفتح الأسارير وانقباضها ،
واتساع الحدة ، وإغماض العينين ، واحمرار الوجه واصفراره ، ووقوف
شعر الرأس ، وارتعاد الجسم . . . وما إلى ذلك من الظواهر الفطرية التي
تبدو بشكل غير إرادي في حالات الفرح والحزن والألم والخوف والحجل
والاشمزاز . . . وما إليها ، والتي تعبر عن قيام حالة وجدانية خاصة بالشخص
الصادرة عنه .

وتنقسم هذه التعبيرات من حيث الحاسة التي ندرکها عن طريقها
إلى نوعين :

١ — تعبيرات بصرية ، أي تصل عن طريق حاسة النظر ، كالحمرة
والصفرة والرعدة وانقباض الأسارير وانبساطها واتساع الحدة وإغماض
العينين ووقوف شعر الرأس والعدو . . . وما إلى ذلك من الظواهر الجسمية
التي تصحب مختلف الانفعالات .

٢ — تعبيرات سمعية ، أي تصل عن طريق حاسة السمع ، كالضحك
والبكاء والصراخ . . . وما إلى ذلك من الظواهر الصوتية الفطرية التي

تصحب حالات الفرح والألم والحزن والسرور ... وهلم جرا . ويتألف هذا النوع من أصوات مبهمه (تشبه أصوات الحيوان وأصوات مظاهر الطبيعة) وأصوات لين (حروف مد) مختلطة أحيانا ببعض أصوات ذات مقاطع (حروف ساكنة) .

وقد تكفلت بحوث علم النفس بدراسة هذا القسم بنوعيه ، وشرح مظاهره ، ومنشأ كل منها ، والقوانين التي تشرف عليه ويخضع لها في مختلف نواحيه ، ووسائل إدراكه ، وفهم ما يعبر عنه ... وهلم جرا (١) .
(القسم الثاني) التعبير الوضعي الإرادي : — ويشمل جميع الوسائل الإرادية التي يلجأ إليها الإنسان للتعبير عن المعاني التي يود وقوف غيره عليها . وتنقسم هذه الوسائل من حيث الحاسة التي ندرکها عن طريقها إلى نوعين مشبهين لنوعى القسم الأول : أحدهما التعبيرات الإرادية البصرية ؛ وثانيهما التعبيرات الإرادية السمعية :

١ — أما التعبيرات الإرادية البصرية ، فهي التي تصل عن طريق حاسة النظر ، وتشمل جميع الاشارات الحسية التي تستخدم بقصد الدلالة . وهي على ضربين :

(أحدهما) إشارات مساعدة ونائية ، أي تساعد لغة الكلام وتنوب عنها في حالات خاصة أو ضرورة ما . ومن هذه الطائفة الإشارات البحرية وهي التي يستخدمها عن بعد بحارة سفينة مع بحارة سفينة أخرى (٢) ؛ ومنها إشارات الصيد وهي التي يستخدمها الصيادون بعضهم مع بعض عن

(١) انظر مؤلفات علم النفس ، وبخاصة البحث الجليل الذي كتبه أستاذنا العلامة دوما Dumas في الجزء الأول من كتاب « علم النفس » *Traité de Psychologie* الطبعة الأولى صفحات ٦٠٦ — ٧٣٢ .

(٢) هذه الاشارات دولية معروفة لجميع البحارة ، وتدرس في مدارس البحرية .

بعد حتى لا يسمع صوتهم الحيوان المطارد ؛ ومنها الحركات اليدوية والجسمية التي يستخدمها الصم البكم للتعبير عما يجول بخواطرهم ؛ ومنها الإشارات التي يلجأ إليها الفرد أحياناً للتعبير إذا كان المخاطب لا يفهم لفته ؛ والتي جرت العادة في بعض الأمم الأولية أن يستخدمها أفراد العشائر المختلفة اللهجات بعضهم مع بعض ^(١) ؛ ومنها الإشارات التي تستخدم في بعض الشعوب في حالات الصيام الديني عن الكلام ^(٢) ؛ ومنها الحركات التي يستعين بها في أثناء حديثهم أهل اللغات الساذجة الناقصة لتكملة ما ينقص تعبيرهم وما يعوزه من دلالة ^(٣) ؛ ومنها الحركات التي تصحب

(١) عثر علماء الأنثوجرافيا على هذه الظاهرة عند كثير من قبائل السكان الأصليين لأمريكا وأستراليا ، وعند بعض العشائر الأفريقية . وقد روى الأستاذ كوهل Kohl أنه إذا التقى أحد الهنود الحمر (السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) بآخر من غير عشيرته ، يختلف عنه في لفته ، فإنهما يلجآن في تعبيرهما إلى لغة الإشارات التي تعتبر عند هذه العشائر بمثابة لغة دولية . وقد مهر الهنود الحمر في هذه اللغة أئما مهارة . ففي إمكان المتخاطبين أن يظلا يوما كاملا يتحدثان عن طريق الإشارات باليد والأصابع والرجلين ، وأن يقص كل منهما على الآخر كل ما بود قصه عليه . — انظر ليفي برول : « الوظائف العقلية في الأمم الأولية » ١٧٨ وتوابعها

Levy-Bruhl : Fonctions Mentales... etc.

(٢) يوجد الصيام الديني عن الكلام عند كثير من الأمم الأولية وبخاصة عند سكان أستراليا وأمريكا . فقد ذكر الأستاذان سبنسر وجيلين في كتابهما عن سكان أستراليا الوسطى حالات كثيرة من هذا القبيل ، منها أن المتوفى عنها زوجها يجب عليها أن تظل مدة طويلة ، تبلغ أحيانا عاما كاملا ، صائمة عن الكلام . — ويظهر أن شيئا من هذا كان موجودا في ديانة اليهود ، بدليل قوله تعالى عن لسان مريم : « إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا . . . فأشارت إليه . . . الخ » .

(٣) لوحظ هذا في كثير من الأمم الأولية ، فقد روى عن البوشيمان Boschimans (عشائر بدائية تسكن أفريقيا الجنوبية) أنهم إذا أرادوا المحادثة ليلا يضطرون إلى إشعال النار ليتمكنوا من رؤية الإشارات اليدوية التي تصحب كلامهم فتكمل ناقصه ومحدد مدلولاته . — انظر ريبو « تطور المعاني الكلية » ص ٧٨ وتوابعها

Ribot : Evolution des Idées Générales.

حديثنا نحن لتوكيد المعانى أو لتمثيل الحقائق أو لزيادة التوضيح ؛ والتي نستخدمها وحدها للدلالة على الإيجاب والنفي والاستحسان وما إلى ذلك ، كالأسماء بالرأس للتعبير عن القبول ، وتحريك السبابة حركة مستعرضة للتعبير عن الرفض أو النفي ، ومد الشفتين ووضع السبابة عليهما للأمر بالسكوت وهلم جرا .

(وثانيهما) إشارات أصيلة عامة ، وهى التى يتكون منها لغة كاملة مستقلة تستخدم وحدها فى جميع الشئون والظروف . — وقد استخدم هذا النوع من اللغات عند بعض الجماعات الإنسانية ولا يزال مستعملا فى بعض العشائر . فقد عثر فى الأمم الأولية على جماعات كثيرة لا تكاد تستخدم فى تعبيرها غير الإشارات اليدوية والجسمية . ومن هؤلاء بعض قبائل السكان الأصليين لأمريكا وأستراليا وبعض العشائر بأفريقيا الوسطى . ويطلق على هذا الضرب من التعبير اسم « لغة الإشارات » أو « الإشارات التحليلية » Gestes Analytiques ^(١) وقد عني بدراسته عدد كبير من علماء الانثوجرافيا والاجتماع من أشهرهم الكولونل مولرى Mallery ^(٢) وتيلور Tylor ^(٣) ورومان Romanes ^(٤) وليبوك Lubock ^(٥) وصبنسر

(١) صاحب هذه التسمية هو العلامة ريبو Ribot (انظر كتابه : « تطور المعانى الكلية ») .

(٢) انظر بحثه بالانجليزية : « لغة الإشارات بين هنود أمريكا الشمالية . وقد ظهر فى تقرير مكتب الانثولوجيا بواشنطن عام ١٨٨١ .

Sign-Language among the North American-Indians.

(٣) انظر كتابه بالانجليزية : « تاريخ النوع الإنسانى فى عصوره الأولى » Early History of Mankind.

(٤) انظر كتابه بالانجليزية : « التطور العقلى فى القفصيلة الإنسانية » Mental Evolution In Man

(٥) انظر كتابه بالانجليزية : « أصول المدنية » The Origin of Civilisation

وجيلين Spencer and Gillen^(١) وليفي برول Levy Bruhl^(٢) وريبو Ribot^(٣) والدكتور فيشر الألماني Fischer^(٤) وروث Rorh^(٥) وقد صوّر الدكتور فيشر هذا النوع من اللغات وقربّه إلى الأذهان إذ يقول :

إذا التقيتُ بأحد الهنود الحمر وأردت أن أخاطبه بلفظة الإشارات لأسأله هل رأى ست عربات يجرها ثيران ويصحبها ستة سائقين منهم ثلاثة مكسيكيون وثلاثة أمريكيون وواحد ممتط صهوة جواده : فأننى أشير إلى شخصه يبدى للدلالة على كلمة « أنت » ؛ ثم أشير إلى عينيه للدلالة على فعل « الرؤية » ؛ ثم أبسط أصابع يدي اليمنى وسبابة يدي اليسرى للدلالة على عدد « ستة » ؛ ثم أكون صورة دائرة بالصاق نهايتي السبابتين والابهامين إحداهما بالأخرى وأمد يدي إلى الأمام وأحركهما كما تتحرك عجلات العربّة وهى تسير للدلالة على « العربّة » ؛ ثم أضع الكفين ممدودتين بجانبى الجبهة ممثلاً قرن حيوان للدلالة على « الثور » ؛ ثم أمد ثلاثة أصابع من يدي اليسرى وأضع يدي اليمنى تحت شفتى السفلى وأنحدر بها إلى صدرى ممثلاً اللحية للدلالة على « ثلاثة مكسيكيين » ؛ ثم أمد

(١) انظر كتابهما بالانجليزية : « العشائر الأصلية باستراليا الوسطى » و « العشائر الشمالية باستراليا الوسطى » .

(٢) انظر كتابه بالفرنسية : « الوظائف العقلية عند الأمم البدائية » صفحات ١٧٥ - ٣٠٤ .

(٣) انظر كتابه بالفرنسية : « تطور المعانى الكلية » صفحات ٥٨ - ٦٤ .

(٤) عفى الدكتور فيشر فى بحوث كثيرة بدراسة هذا النوع من اللغات عند عشائر أفريقيا الوسطى ، وعند السكان الأصليين لأمرىكا .

(٥) انظر كتابه بالانجليزية « دراسات اتنولوجية للسكان الأصليين بالقسم الشمالى الغربى بكوينسلندا » .

مرة ثانية ثلاثة أصابع وأمسح جبتي بيدي من اليمين إلى الشمال ممثلاً وجهاً شاحباً للدلالة على «ثلاثة أمريكيين» ؛ ثم أرفع إصبعاً واحداً وأضع بعد ذلك سبابة اليسرى بين سبابة اليمين ووسطاها ممثلاً الراكب للدلالة على «رجل واحد راكب حصاناً» . — وأضاف إلى ذلك أن الوقت الذي يقضيه أحد المتكلمين بهذه اللغة في أداء هذه الحركات لا يزيد كثيراً عن الوقت الذي يستغرقه تعبيرنا نحن باللغة الكلامية عن هذا المعنى .

وقرر الأستاذ تيلور ، بصدد هذه اللغة ، أن لها قواعد إشارية لربط أجزاء العبارة بعضها ببعض وترتيب عناصرها ؛ وأنها في مجموعها تكاد تكون متحدة عند جميع الشعوب التي تستخدمها ، فهي من هذه الناحية أشبه شيء بلغة دولية ؛ وأنه يمكن أحياناً التعبير بها عن حقائق دقيقة كمعطات وضرب أمثال وقصص حكايات ؛ وأنها في جملتها ومعظم تفاصيلها تشبه لغة الصم — البكم . فقد جمع الكولونل مولري بين رجل أصم — أبلبكم وطائفة من الهنود الحمر المتكلمين بلغة الإشارات ، فأخذ الأصم — الأبلبكم يقص عليهم بالإشارات قصة طويلة تتعلق بحادث مزرقة ، وعقب على هذه القصة بتعليقات من عنده ، فلم يفهمهم فهم أى حركة من حركاته ، لاتحادها مع حركاتهم اللغوية .

وذهب العلامة ريبو إلى أنها قابلة للإصلاح والتهديب ، وأنه لو طال استخدام الشعوب الإنسانية لها أسارت في سبيل الارتقاء ، ولأصابتها كثير من أسباب التنقيح تحت تأثير الرقي العقلي ، ومطالب الحياة الاجتماعية ، واتساع حاجات الإنسان ، وأعمال المخترعين والعلماء . . . وما إلى ذلك .

غير أنه مهما ينلها من التهديب فلن تخلو من مثالبها الذاتية . فهي

تستأثر باليد ، فتحول دون القيام بأى عمل آخر فى أثناء التعبير . ويتوقف إدراكها على النظر ، فلا يمكن التعبير بها عن بعد ولا فى الظلام . وهى قائمة على تقليد الأشياء المحسة ، فلا تكاد تقوى على التعبير عن المعانى الكلية أو وصف المشاعر والوجدان . هذا إلى أنها عارية عن الدقة فى كثير من مظاهرها ، وأنها تقتضى إسرافاً كبيراً فى الوقت والمجهود .

٢ — وأما التعبيرات الإرادية السمعية ، فهى التى تصل عن طريق حاسة السمع . وهى الأصوات المركبة ذات المقاطع التى تتألف منها الكلمات .

وهذا النوع هو الذى تنصرف إليه كلمة « اللغة » إذا أطلقت . وهو وحده الذى يهمننا فى بحثنا . وإنما ذكرنا الأنواع الأخرى لاستيفاء مظاهر التعبير من جهة ، ولأننا قد نحتاج إليها من جهة أخرى فى بيان نشأة هذا النوع ، أو فى ضرب الأمثال ، أو الموازنة ، أو مناقشة النظريات وتوضيحها .

الفصل الثاني

اختصاص الإنسان باللغة ومزاكها

تشارك معظم فصائل الحيوان مع الإنسان في القسم الأول من قسمي التعبير المذكورين في الفصل السابق ، وهو التعبير الطبيعي عن الانفعالات ، سواء في ذلك التعبير الطبيعي البصري والتعبير السمعي . فانفعالات الحيوان جسميها ونفسيها ، كالجوع والعطش والسرور والفرح والخوف والاطمئنان والحزن والاشمئزاز والغضب . . . وما إلى ذلك ، يثير كل منها لدى المتلبس به طائفة خاصة من الحركات الفطرية غير المقصودة . وهذه الحركات بعضها بصرى ، أى يصل عن طريق حاسة النظر : كاتساع الحدقة وضيقها ، وبسط الأذنين وخفضهما ، والتكشير عن الناب ، ووقوف الشعر ، وانتفاخ الجسم والأوداج ، والهرب ، والاختفاء . . . وما إلى ذلك ؛ وبعضها سمعي ، أى يتمثل في صوت يصل عن طريق الأذن : كرغاء الناقة وبغامها ، وصهيل الفرس ، وقبعه^(١) عند نفوره من شيء ، وحممته عند الجوع أو الاستئناس ، وشحيج البغل ، ونهيق الحمار ، وخوار البقر ، وثغاء الغنم ، وزئير الأسد ، وعواء الذئب وتضوره وتلعله عند جوعه ، ونباح السكلب وضغائه إذا جاع ووقوفته إذا خاف وهريره إذا أنكر شيئاً أو كرهه ، وضباح الثعلب ، ومواء الهرة ، وضحك القردة ، وصرصره البازي ، وقعقة الصقر ، وهدير الحمام ، وسجع القمري ، وزقزقة العصفور ، ونعيق الغراب ، وخيخ الحيات وكشيشها

(١) صوت يردده الفرس من منخره إلى حلقه عند نفوره من شيء .

وحفيفها عند تحرش بعضها ببعض إذا انسابت ، وتقيق الضفدع . . .
وهلم جراً (١) .

وتشترك كذلك بعض فصائل الحيوان مع الإنسان في التعبير الإرادى البصرى ، وهو التعبير بالإشارة . ويبدو هذا على الأخص لدى الحيوانات التى تعيش جماعات كالنحل والنمل والقردة والبقر والغنم والوعول وما إليها . فقد ثبت أن كثيراً من هذه الفصائل وغيرها تستخدم أحياناً بعض إشارات جسمية للتعبير بها بشكل مقصود عن بعض شئونها . فتحمل الأوعال (الأيل) يستخدم فى أثناء قيادة قطيعه بعض إشارات برأسه وقرونها للوقوف فيقف جميع أفراد القطيع ، وبعض إشارات للسير فيسير جميع أفراد القطيع ، ويستحث المتخلفات بأن ينطح كلا منها نطحاً خفيفاً . ويستخدم الأذكاء من الكلاب مع أفراد فصيلتها ومع الأدميين بعض إشارات بالرأس وغيرها للتعبير بطريق إرادى عن أمور خاصة ، كأن تمر بأظافرها على الباب ليفطن أصحابها إلى وجودها فيفتحوا لها ، أو تدفع إناء طعامها برأسها للتعبير عن حاجتها إلى الغذاء . . . وهلم جراً . . . وتستخدم كذلك فصائل القردة ، وبخاصة الفصائل العليا منها (الغوريلا ، الشمبنزيه ، الجيمبون ، الأورانج — أوتانج) وفصائل النحل والنمل بعض إشارات من هذا القبيل . فقد كشف العلامة كوهلر Kohler عند فصائل القردة العليا عن ظواهر كثيرة من هذا النوع ، منها ما يعمله الشمبنزيه حينما يريد أن يرافقه آخر فى طريقه ، أو يرغب فى أن يعطيه أحد زملائه شيئاً مما فى يده ، أو يطلب نداءه عن بعد : فانه فى الحالة الأولى يحنك به بخفة ويجذبه من

(١) انظر فى هذه الأصوات وغيرها « فقه اللغة » للثعالبي صفحات ٢٠٩ — ٢١٢

ذراعاً محدقاً فيه ومتقدماً بعض خطوات في الطريق التي يود أن يسلكها
معا ؛ وفي الحالة الثانية يمدّ يده إلى زميله مدّ الاستجداء ؛ وفي الحالة الثالثة
يمدّ يده ويقبض كفه ويبسطها كما نفعل نحن في مثل هذه المناسبة (١) .
وقرر الأساتذة كيربي وسبنسر وبورديستر وهوبير وفرانكلين Kirby,
Spenser, Burmeister, Huber Franklin أن كثيراً من طوائف النحل
والنمل يستخدم أفرادها ، بعضها مع بعض ، إشارات مقصودة للتعبير بها
عن بعض شئونها ، وأن هذه الإشارات تتمثل في احتكاك بعض أعضاء
المتكلم أو أطرافه أو ذؤاباته بجزء من جسم المخاطب بطريقة خاصة . وقام
العلامة لوبوك Lubbock بطائفة كبيرة من التجارب بهذا الصدد ، فتبين له
صديق ماذهب إليه هؤلاء الأساتذة (٢) .

وأما النوع الأخير من أنواع التعبير التي ذكرناها في الفقرة السابقة
وهو اللغة بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، أي الأصوات المركبة ذات المقاطع
التي تتألف منها الكلمات ، فيظهر أن الإنسان قد اختص بها من بين سائر
الفصائل الحيوانية .

(١) انظر كوهلر : « ذكاء الفصائل العليا من القردة » صفحة ٢٩٤ وتوابعها :

Köhler : Intelligence des Singes Supérieurs.

(٢) انظر ريبو : « تطور المعاني السككية » صفحتي ٦٦ ، ٦٧ . — وانظر كذلك

لوبوك : « النمل والنحل والزناير » Lubbock : Ants, Bees, and Wasps . —

وانظر كذلك رومان « الذكاء الحيواني » Romanes : Animal Intelligence .

هذا وقد أنكر بعض العلماء وجود الإشارات ذات الدلالة المقصودة عند الحيوان .

ومن هؤلاء العلامة واسمان Wasman الذي يرى أن كل الإشارات الحيوانية التي

يخيل للإنسان أنها من هذا النوع هي في الحقيقة فطرية ، وأنها لا تدل المخاطب على شيء

معين بل تقتصر على إثارة نشاطه في ناحية يحددها العمل الذي سيتلو الإشارة . —

وتابعه في هذا أستاذي العلامة دولاكروا . انظر دولاكروا : « اللغة والفكر »

صفحة ٧٥ وتوابعها .

حقاً إن بعض طوائف الحيوان تصدر عنه أصوات شبيهة في ظاهرها بهذا النوع من التعبير . ولكن بالتأمل في هذه الأصوات يتبين أنها عارية عن خصائص اللغة في صورتها الصحيحة ، وأنها ترجع إلى فصيلة أخرى من فصائل الأصوات . وسنعرض فيما يلي لأهم ما يبدو عند الحيوان من هذا القبيل ، معقبين على كل مظهر منها بما يبين وجوه الفرق بينه وبين اللغة الصوتية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة .

يرجع أهم ما يلفظه الحيوان من هذه الأصوات إلى ثلاث طوائف :

(الطائفة الأولى) أصوات فطرية الأصل يستخدمها الحيوان قاصداً بها التعبير عن بعض شئونه : كالخمة التي يرددها الفرس بشكل إرادي عند رؤية صاحبه للتعبير عن حاجته إلى العلف ، والمواء الذي يلجأ إليه الهر لينبئ به عن جوعه ، والنباح الذي يلفظه الكلب قاصداً به إيقاظ أهل المنزل وإرشادهم إلى أن شخصاً يحوم حول البيت ... وهلم جرا .

وهذه الطائفة ليست ، في الواقع ، من اللغة الصوتية في شيء ، ونأشبهتها في ظاهرها ووظيفتها . وذلك أنها أصوات مبهمّة عارية عن المقاطع والكلمات وغير متميزة العناصر . ومن أهم خصائص الكلام كما لا يخفى اشتماله على مقاطع وكلمات وتميز عناصره بعضها من بعض — هذا إلى أنها في الأصل أصوات فطرية تصحب الانفعالات ، وأن كل ما يعمل به الحيوان حيالها في هذه الحالة أن يرددها هي نفسها بشكل إرادي للدلالة على نفس الانفعالات التي تعبر عنها في شكلها الفطري أو للدلالة على أمور انفعالية قريبة منها (الجوع ، العطش ، الخوف ... الخ) . وأصوات هذا شأنها لا يصح عدها كلاماً ؛ لأن أهم خصائص الكلام أنه أصوات موضوعة

للدلالة وأنه يعبر به عن معان لا عن انفعالات (١).

(الطائفة الثانية) أصوات متنوعة تلفظها القردة في اجتماعاتها بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها وسائل تعبير إرادي، وأن أفراد القردة تتجاذب بها الحديث بعضها مع بعض. — وتبدو هذه الظاهرة بشكل واضح في الفصائل العليا من القردة وبخاصة «الجيمبون».

وهذه الطائفة كذلك ليست في الواقع من اللغة الصوتية في شيء وإن أشبهتها في ظاهرها ومناسبات استخدامها. فقد ظهر بالبحث فيها أن بعضها تعبير طبيعي عن الانفعال، وبعضها مجرد ترديد إرادي لهذا التعبير (٢)، وبعضها من ظواهر التداعي الآلي (٣) أو العدوى الصوتية (٤) أو تقليد الحيوان بطريق فطري غير إرادي لأصوات نفسه أو أصوات غيره (٥). — هذا إلى أنها — على الرغم من تنوعها، وعلى الرغم من تشابه أعضاء النطق عند فصائل القردة بأعضاء النطق الإنسانية — أصوات مبهمه بسيطة هارية عن

(١) يبدو كذلك هذا النوع من الأصوات عند الطفل الإنساني في شهوره الأولى كما سنذكر ذلك في الباب الثاني. وقد رأينا تسمية هذا النوع عند الطفل «بالأصوات الوجدانية الإرادية». — وقد يلجأ الكبار أنفسهم أحيانا لهذا النوع من التعبير فيضحكون مثلا متكلفين الضحك للتعبير عن السرور.

(٢) أي من الأصوات التي سبق ذكرها في الطائفة الأولى.

(٣) وذلك أن يرتبط الصوت بشيء آخر بطريقة تجعله يظهر بشكل تلقائي غير إرادي كلما ظهر هذا الشيء. وسيأتي بيان ذلك بتفصيل في الطائفة الثالثة.

(٤) تبدو ظاهرة العدوى الصوتية عند كثير من أنواع الحيوانات، وتبدو كذلك عند الأطفال إذا ضمهم مكان واحد: يصوت الوليد منهم فيثير صوته أصوات الآخرين ويكي أحدهم فيكي لبكائه الباكون (انظر تفصيل هذا بكتابي «في التربية» ص ٧٠ وتوابعها).

(٥) سيأتي شرح هذا في الطائفة الثالثة.

المقاطع والكلمات وغير متميزة العناصر . وقد تقدم^(١) أن من أهم خصائص الكلام اشتماله على مقاطع وكلمات وتميز عناصره بعضها عن بعض^(٢) .

(الطائفة الثالثة) أصوات مركبة ذات مقاطع تلفظها بعض الطيور كالبنغاء وما إليها من الفصائل التي امتازت أعضاء صوتها بخصائص طبيعية تتيح لها إخراج هذا النوع .

وهذه الطائفة كذلك ليست في الواقع من اللغة الصوتية في شيء وإن أشبهتها في الظاهر . وذلك أن الطائر لا يقصد بهذه الأصوات التعبير . فهي تصدر عنه في ثلاث حالات ، كلها فطرية آلية عارية بتاتا عن هذا القصد :

(الحالة الأولى) حينما يكون الطائر متلبسا بانفعال جسمي أو نفسي . وهي في هذه الحالة من نوع التعبير الطبيعي عن الانفعالات : تصدر عن غير قصد ؛ ويشيرها بشكل آلي الانفعال المتلبس به الطائر . وإثارها مؤسسة على الروابط الطبيعية الفطرية التي تربط أعضاء الصوت بحالات الجسم والنفس بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك وحدها بشكل آلي أو منعكس وتلفظ أصواتا مركبة ذات مقاطع عند وجود حالة من الحالات الجسمية أو النفسية المرتبطة بها . فهي حينئذ من قبيل الضحك والبكاء

(١) انظر ص ١٧ .

(٢) انظر في هذا الموضوع بحوث الأستاذ Pfungst الذي درس أكثر من مائتي قرد في حديقة الحيوان ببرلين ؛ وبحوث Bouton الذي لاحظ في أثناء خمس سنوات أدوار نمو قرد من فصيلة الجيبون ؛ وبحوث كوهلر الذي كتب كثيرا في القردة وبخاصة القردة العليا التي ألف فيها كتابه الشهير : « ذكاء القردة العليا » ؛ وانظر كذلك ما كتبه أستاذي العلامة دولا كروا بهذا الصدد في كتابه « اللغة والتفكير » ص ٧٧ وتوابها .

وما إليهما من مظاهر « التعبير الطبيعي السمعى » . وكل ما هنالك أن التعبير الطبيعي السمعى يبدو عند الحيوانات الأخرى فى صورة بسيطة مبهمه ، ويبدو عند هذه الطيور أحيانا فى صورة أصوات مركبة ذات مقاطع . (والحالة الثانية) حينما تكون محاكاة لصوت إنسانى سمعه الطائر .

وهى فى هذه الحالة كذلك تصدر بشكل آلى عار عن قصد التعبير بل عن قصد المحاكاة نفسها . وذلك أن هذه الفصائل مزودة بروابط طبيعية تربط جهاز سمعها بجهاز صوتها بطريقة تجعل أعضاء الجهاز الثانى تتحرك أحيانا وحدها وتلفظ بشكل آلى نفس الأصوات التى يحسها الجهاز الأول : فكلما وصل صوت إلى سمعها فى ظروف خاصة انبعث صدها من أفواهها^(١) .

(والحالة الثالثة) قد تسمع البغاء أحيانا كلمات أو أصواتا فى مناسبة ما فتكررها كلما حدثت هذه المناسبة أو مناسبة أخرى تشبهها بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها تقصدها التعبير عن أمر معين : فقد تسمع مثلا أصحابها ينادون طفلا باسمه ، فتكرر هذا الاسم كلما رأت الطفل أو رأت دميته أو متاعا من أمتعته^(٢) .

وهذه الأصوات كذلك ليست من اللغة فى شئ وإن التبتت بها فى بادىء النظر . وذلك أن الطائر لا يقصد بها ، فى الواقع ، التعبير عن أمر ما ، وإنما تصدر منه بشكل غير إرادى على الصورة التى تصدر فيها ظواهر « التداعى الآلى » . فمن كثرة تكرار الكلمة أمام الطائر بحضرة الشخص أو الشئ الذى تدل عليه ، يرتبط صوتها بصورة مدلولها ، فينبعث الصوت

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع بمؤلفى : « فى التربية » ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) من أهم الملاحظات بهذا الصدد مادونه الدكتور واكس عضو الجمعية الملكية بصحيفة العلوم العقلية عدد يولية سنة ١٨٧٩ .

من الطائر بشكل آلى^(١) كلما ظهر أمامه المدلول أو ما يتصل به^(٢).
هذا ، ولا يمتاز الانسان بهذا الصدد عن بقية فصائل الحيوان باللغة
الصوتية فحسب ، بل يمتاز عنها كذلك بطائفة من المراكز الحسية التي
تشرف على مختلف مظاهر هذه اللغة (مركز إصدار الألفاظ ، مركز حفظ
الكلمات المسموعة ... وهلم جرا) . فقد ثبت أن هذه المراكز لا يوجد لها
نظير في منح أى فصيلة حيوانية ، حتى الفصائل العليا من القرود نفسها .

فالبحث في نشأة اللغة عند الإنسان يتطلب إذن دراسة موضوعين
اثنيين : أولهما نشأة الكلام في الفصيلة الإنسانية ؛ وثانيهما نشأة مراكز
اللغة في المنح الانسانية . وسنعتقد لكل منهما فصلا خاصا . ثم نكمل بحوث
هذا الباب بخمسة فصول : أولها في المراحل الأولى التي اجتازتها لغة
الإنسان بعد نشأتها وما انتابها من تطور في هذه المراحل ؛ وثانيها في الفصائل
التي انتهت إليها الآن تطور اللغات الإنسانية وتشعبها ؛ وثالثها ورابعها في
وجوه الخلاف والمثابة بين هذه الفصائل ؛ وخامسها في العوامل التي أدت
إلى تشعبها على هذا الوجه .

(١) انظر في هذا الموضوع كتابي الأستاذ رومان : « الذكاء الحيواني »
و « الارتقاء العقلي للانسان » . — وانظر بحثنا بهذا الصدد للعلامة واكس في المجلة
الفلسفية لسنة ١٨٨٠ Revue Philosophique . وانظر كذلك ما كتبه أستاذي
المرحوم دولا كروا في كتابه « اللغة والفكر » ص ٧٨ .

الفصل الثالث

نشأة الكلام

لا شك أن الفضل في نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى المجتمع نفسه وإلى الحياة الاجتماعية . فلو لا اجتماع الأفراد بعضهم مع بعض وحاجتهم إلى التعاون والتفاهم وتبادل الأفكار والتعبير عما يجول بالخواطر من معان ومدركات ما وجدت لغة ولا تعبير إرادى .

ولا شك كذلك أن اللغة ظاهرة اجتماعية تنشأ كما ينشأ غيرها من الظواهر الاجتماعية : فتخلقها في صورة تلقائية طبيعة الاجتماع ، وتنبعث عن الحياة الجمعية وما تقتضيه هذه الحياة من شئون^(١) .

فليست المشكلة إذن في البحث عن الأسباب التي دعت إلى نشأة اللغة ، ولا في البحث عن أنشأها . وإنما المشكلة في البحث عن العوامل التي دعت إلى ظهورها في شكل أصوات مركبة ذات مقاطع متميزة الكلمات ، والكشف عن الصورة الأولى التي ظهرت بها هذه الأصوات ، أى الأسلوب الذى سار عليه الإنسان في مبدأ الأمر في وضع أصوات معينة لمسميات خاصة ، وتوضيح الأسباب التي وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره .

وعلى ضوء هذه الحقائق سنناقش النظريات التي قيلت في نشأة اللغة ؛ فنرفض كل نظرية تذهب في ذلك مذهبا لا يتفق مع هذه الحقائق المقررة ، أو تغفل المشكلة الرئيسية التي نحاول حلها .

(١) انظر في ذلك كتابي في « اللغة والمجتمع » وخاصة صفحات ٣ — ٦ .

هذا ، وأهم ما قيل في نشأة اللغة يرجع إلى أربع نظريات .

(النظرية الأولى) تقرر أن الفضل في نشأة اللغة الانسانية يرجع إلى إلهام إلهي هبط على الإنسان فعلمه النطق وأسماء الأشياء . وقد ذهب إلى هذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني هيراكليت Héraclite^(١) ، وفي العصور الوسطى بعض الباحثين في فقه اللغة العربية كابن فارس في كتابه الصحاح^(٢) ، وفي العصور الحديثة طائفة من العلماء على رأسها الألب لامي Lami في كتابه «فن الكلام» L' Art de parler^(٣) والفيلسوف دوبونالد Vicomte de Bonald في كتابه التشريع القديم . Législation Primitive^(٤)

ولا يكاد أصحاب هذه النظرية يقدمون بين يدي مذهبهم دليلا عقليا يعتقد به^(٥) . أما أدلتهم العقلية فبعضها يحتمل التأويل وبعضها يكاد يكون

(١) فيلسوف إغريقي من المدرسة اليونانية ولد بإيقيزيا عام ٥٧٦ هـ وتوفي عام ٤٨٠ ق م . ونسبة هذا الرأي له ليست يقينية .

(٢) انظر الصحاح صفحات ٥ — ٧ . وقد مال إلى هذا الرأي كذلك ابن جني في كتابه الخصائص انظر الجزء الأول ص ٤٥ ، وإن كان قد رد في أول الفصل على ما يعتمد عليه القائلون به ذاهبا إلى أنه لا ينهض دليلا لهم .

(٣) هو دوم فرنسوا لامي Dom François Lami ولد بـمونتيرو Montireau من أعمال فرنسا سنة ١٦٣٦ وتوفي بسان ديني Saint Denis سنة ١٧١١ . وقد قام بتدريس الفلسفة بكثير من المعاهد الدينية . وإليه يرجع الفضل في نشر آراء الفيلسوف ديكارت بهذه المعاهد .

(٤) اسمه لويس جبرائيل أمبرواز Louis-Gabriel Ambroise ولد بمدينة مييو Millan من أعمال فرنسا عام ١٧٥٤ وتوفي بها عام ١٨٤٠ . وله مؤلفات كثيرة في السياسة والفلسفة . وكان من أكبر أنصار الحكومة الملكية الخاضعة للنفوذ الديني الكاثوليكي .

(٥) سذنين فساد الأدلة العقلية التي ذكرها بعض المنعصبين لهذه النظرية عند مناقشتنا للنظرية الثالثة التي لا تختلف كثيرا في جوهرها عن هذه النظرية .

دليلا عليهم لا لهم . فالمتوידون لهذا الرأى من باحثى العرب يعتمدون على قوله تعالى : «وعلم آدم الأسماء كلها» . وهذا النص ، كما ترى ، ليس صريحا فيما يدعون . إذ يحتمل أن يكون معناه — كما ذكر ذلك ابن جنى فى كتابه الخصائص وذهب إليه كثير من أئمة المفسرين — أن الله تعالى أقدر الإنسان على وضع الألفاظ . وأما القائلون بهذه النظرية من الفرنجة ، فيعتمدون على ماورد بهذا الصدد فى سفر التكوين إذ يقول : « والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء ، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها وليحمل كل منها الاسم الذى يضعه له الإنسان . فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول ^(١) » . وهذا النص ، كما ترى ، لا يدل على شىء مما يقول به أصحاب هذه النظرية ، بل يكاد يكون دليلا عليهم . ومهما يكن من شىء ، فلا صلة للدليل النقلى بمقام البحث العلمى . — وفضلا عن هذا كله ، فإن هذه النظرية تغفل إغفالا تاما المشكلة الرئيسة التى تهمنى وحدها فى هذا البحث والتى حددناها تحديدا دقيقا فى صدر هذه الفقرة .

(النظرية الثانية) تقرر أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق وارتجال ألفاظها ارتجالا . وقد ذهب إلى هذا الرأى فى العصور القديمة الفيلسوف اليونانى ديموكريت Démocrite (من فلاسفة القرن الخامس ق . م) ، وفى العصور الوسطى كثير من الباحثين فى فقه اللغة العربية ، وفى العصور الحديثة الفلاسفة الإنجليز آدم سميث Adam Smithe

(١) انظر الفقرتين ١٩ ، ٢٠ من الإصحاح الثانى من سفر التكوين .

وريد Reid ودجلد ستيوارت Dugald Stewart.

وليس لهذه النظرية أى سند عقلى أو نقلى أو تاريخى . بل إن ما تقرره
ليتعارض مع النواميس العامة التى تسير عليها النظم الاجتماعية . فبعدنا بهذه
النظم أنها لا ترجل ارتجالا ولا تخلق خلقا ، بل تتكون بالتدريج من تلقاء
نفسها . — هذا إلى أن التواضع على التسمية يتوقف فى كثير من مظاهره على
لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون ^(١) . فما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ
للغة يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل ^(٢) . فضلا عن هذا كله فإن
هذه النظرية تغفل إغفالا تاما المشكلة التى تهمننا وحدها فى هذا البحث
والتي وضحنا عناصرها فى صدر هذه الفقرة .

فلسنا هنا بصدد نظرية جديدة بالمناقشة ، بل بصدد تخمين خيالى
وفرض عقيم يحمل فى طيه آية بطلانه . وقد ذهب المتعصبون له فى تصوير
منشأ اللغة مذاهب ساذجة غريبة تدل أبغ دلالة على مبلغ انحرافه عن جادة
الصواب ونطاق المعقول . وإليك نبذة مما يقوله بعضهم بهذا الصدد : « إن
أصل اللغة لابد فيه من المواضعة ؛ وذلك كأن يجتمع حكيان أو ثلاثة
فصاعدا فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء ، فيضعوا الكل منها سمة ولفظا
يدل عليه ويغنى عن إحضاره أمام البصر . وطريقة ذلك أن يقبلوا مثلا
على شخص ويومثوا إليه قائلين : إنسان ، إنسان ، إنسان ، فتصبح هذه
الكلمة اسما له . وإن أرادوا سمة عينه أو يده أو رأسه أو قدمه أشاروا إلى

(١) سيأتى توضيح هذا فى النظرية الثالثة (انظر ص ٢٨) .

(٢) انظر كذلك فى الرد على هذه النظرية ، رينان « أصل اللغة » ص ٧٦

العضو وقالوا : يد ، عين ، رأس ، قدم ... ، ويسيرون على هذه الوتيرة في أسماء بقية الأشياء وفي الأفعال والحروف وفي المعاني الكلية والأمور المعنوية نفسها^(١) . وبذلك تنشأ اللغة العربية مثلاً . ثم يخطر بعد ذلك لجماعة منهم أن يضعوا كلمة «مرد» بدل إنسان وكلمة «سر» بدل رأس ... وهكذا فتنشأ اللغة الفارسية ..^(٢) .

(النظرية الثالثة) تقرر أن الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى غريزة خاصة زود بها في الأصل جميع أفراد النوع الإنساني ، وأن هذه الغريزة كانت تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك حسي أو معنوي بكلمة خاصة به ، كما أن غريزة « التعبير الطبيعي عن الانفعالات » تحمل الإنسان على القيام بحركات وأصوات خاصة (انقباض الأسارير وانبساطها ، وقوف شعر الرأس ، الضحك ، البكاء ... الخ) كلما قامت به حالة انفعالية معينة (الغضب ، الخوف ، الحزن ، السرور ... الخ) ، وأنها كانت متحدة عند جميع الأفراد في طبيعتها ووظائفها وما يصدر عنها ، وأنه بفضل ذلك اتحدت المفردات وتشابهت طرق التعبير عند الجماعات الإنسانية الأولى فاستطاع الأفراد التفاهم فيما بينهم ، وأنه بعد نشأة اللغة الإنسانية الأولى لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة فأخذت تنقرض شيئاً فشيئاً حتى تلاشت ، كما انقرض لهذا السبب كثير الفرائز الإنسانية القديمة . ومن أشهر من

(١) لم يبين القائلون بهذه النظرية بوضوح كيف أمكن التواضع على الكلمات الدالة على الحروف والمعاني الكلية ، مع أن هذه الأمور ليس لها في الخارج مدلول حسي يشير إليه المتواضعون .

(٢) نقلاً عن ابن جني بتصرف : الخصائص ، جزء أول ، صفحتي ٤٢ ، ٤٣ .

ذهب هذا المذهب العلامة الألماني مكس مولر Max Müller^(١) والعلامة الفرنسي ريفان Renan^(٢).

وقد اعتمد مكس مولر في تأييد هذه النظرية على أدلة مستمدة من البحث في أصول الكلمات في اللغات الهندية الأوروبية^(٣). فقد ظهر له أن مفردات هذه اللغات جميعها ترجع إلى خمسمائة أصل مشترك، وأن هذه الأصول تمثل اللغة الأولى التي انشعبت منها هذه الفصيلة، فهي لذلك تمثل اللغات الإنسانية في أقدم عهودها. وتبين له من تحليل هذه الأصول أنها تدل على معان كلية؛ وأنه لا تشابه مطلقا بين أصواتها وما تدل عليه من فعل أو حالة.

- (١) ولد بيلدة ديسو Dessau من أعمال ألمانيا عام ١٨٢٣، وتوفي بأكسفورد عام ١٩٠٠ — وهو ابن الشاعر غليوم مولر، تخرج في جامعة ليبزج وبرلين، ثم رحل إلى باريس حيث حضر دروس الأستاذ بورنوف Burnouf في اللغة السنسكريتية، ثم ذهب إلى إنجلترا واستقر بأكسفورد حيث عين أستاذاً بجامعة للآداب واللغات الحديثة ثم أستاذاً للقواعد المقارنة، ومن أشهر مؤلفاته «دروس في علم اللغة» ظهر عام ١٨٦١ و«دروس حديثة في علم اللغة» ظهر عام ١٨٦٤. وكان لهذين الكتابين شأن كبير في القرن السابق. وله كذلك مؤلفات كثيرة في الأديان وتاريخها.
- (٢) إرنست رينان Ernest Renan من أشهر المؤرخين والفلاسفة وعلماء اللغة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، ولد ببلدة تريجييه Tréguier عام ١٨٢٣ وتوفي بباريس عام ١٨٩٠. درس اللاهوت واللغات الشرقية والعلوم ومختلف فروع الفلسفة والآداب، وتولى تدريس اللاهوت واللغة العبرية والتاريخ والفلسفة في كثير من المعاهد، وعين عضواً بالأكاديمية الفرنسية، ومديراً للسكوليج دو فرانس Collège de France. وله نحو خمسين مؤلفاً كبيراً في التاريخ العام وتاريخ الديانات وفي اللغات والأخلاق والفلسفة واللاهوت والسياسة وغيرها. وقد كان لمؤلفاته أكبر أثر في الثقافة الفرنسية في القرن التاسع عشر.
- (٣) هي إحدى الفصائل الثلاث التي ترجع إليها اللغات الإنسانية كما سيأتي الكلام عن ذلك بتفصيل في الفصل السادس من هذا الباب.

ففي دلالتها على معان كلية برهان قاطع على أن اللغة الإنسانية الأولى لم تكن نتيجة تواضع واتفاق ، كما يذهب إلى ذلك أصحاب النظرية الثانية السابق ذكرها . لأن التواضع ، فضلا عن تعارضه مع طبيعة النظام الاجتماعية كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، يتوقف هو نفسه على وسيلة يفهم بها المتواضعون . وهذه الوسيلة لا يعقل أن تكون اللغة الصوتية ، لأن المفروض أن المتواضع عليه هو أول ما ينطق به الإنسان من هذه اللغة ؛ ولا يعقل كذلك أن تكون لغة الإشارة ، لأننا بصدد ألفاظ تدل على معان كلية أى على أمور معنوية يتعذر استخدام الإشارة الحسية فيها .

وفي عدم وجود تشابه بين أصواتها وما تدل عليه برهان قاطع على أن اللغة الإنسانية لم تنشأ من محاكاة الإنسان لأصواته الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعالات) وأصوات الحيوانات والأشياء ، كما يذهب إلى ذلك أصحاب النظرية الرابعة التي سنتكلم عنها قريبا .

وإذا بطل أن اللغة الإنسانية كانت نتيجة تواضع واتفاق ، وبطل كذلك أنها نشأت عن محاكاة الإنسان لأصواته الطبيعية وأصوات الحيوانات والأشياء ، لم يبق إذن تفسير معقول لهذه الظاهرة غير التفسير السابق ذكره : وهو أن الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى غريزة زود بها الإنسان في الأصل للتعبير عن مدركاته بأصوات مركبة ذات مقاطع ، كما زود باستعداد فطري للتعبير عن انفعالاته بحركات جسمية وأصوات بسيطة (١) .

وهذه النظرية — على ما فيها من دقة وطرافة وعمق في البحث —

فأسدة من عدة وجوه :

١ — فهي لا تحل شيئاً من المشكلة التي نحن بصدد حلها بل تكتفي بأن تضع مكانها مشكلة أخرى أكثر منها غموضاً وهي مشكلة «الفريزة الكلامية» .

٢ — هذا إلى أن ما تقرره يعتبر — من بعض الوجوه — من قبيل تفسير الشيء بنفسه . فكل ما نقوله يمكن تلخيصه في العبارة الآتية : « إن الإنسان قد لفظ أصواتاً مركبة ذات مقاطع ودلالات مقصودة لأنه كانت لديه قدرة على لفظ هذا النوع من الأصوات » وهذا ، كما لا يخفى ، مجرد تقرير للمشكلة نفسها في صيغة أخرى .

٣ — على أن قدرة الإنسان الفطرية أو المكتسبة على لفظ هذا النوع من الأصوات ليست موضوع البحث ، لأنه من المقرر أن الإنسان مزود بأعضاء نطق تسمح له بلفظ هذا النوع من الأصوات ، بل إن هذا مشترك بين الإنسان وبعض الطيور كما تقدمت الإشارة إلى ذلك . وإنما الذي يهمنا هو الوقوف على أول مظهر لاستغلال هذه القدرة والانتفاع بها في تكوين الكلام الإنساني ، أي البحث عن الأسلوب الذي سار عليه الإنسان في مبدأ الأمر في وضع أصوات معينة لمسميات خاصة ؛ والكشف عن العوامل التي وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره .

٤ — ولكن أكبر خطأ وقعت فيه هذه النظرية هو ذهابها إلى أن الأصول الخمسة السابقة ذكرها تمثل اللغة الانسانية الأولى . — فهذه الأصول كما تقدم تدل على معانٍ كالمية . ومن الواضح أن إدراك المعاني السكلمية يتوقف على درجة عقلية راقية لا يتصور وجود مثلها في فاتحة النشأة الإنسانية . وهاهي ذي الأمم البدائية التي تعد أصدق ممثل للانسانية الأولى تؤيد ما نقول . فقد أجمع علماء الإثنوجرافيا الذين قاموا بدراسة هذه الأمم بأمريكا وأستراليا وأفريقيا وغيرها على القول بضعف عقلياتهم بهذا الصدد وعجزها

عن إدراك المعاني الكلية في كثير من مظاهرها . وقد كان لهذه العقلية صدى كبير في لغاتهم . فلا نكاد نجد في كثير منها لفظا يدل على معنى كلى . ففي لغة الهنود الحمر مثلاً يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء ... وهكذا ؛ ولكن لا يوجد أى لفظ للدلالة على شجرة البلوط ، ومن باب أولى لا يوجد أى لفظ للدلالة على الشجرة على العموم ^(١) وفي لغة الهورونيين Hurons (من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) يوجد لكل حالة من حالات الفعل المتعدى لفظ خاص بها ؛ ولكن لا يوجد للفعل نفسه لفظ يدل عليه . فيوجد لفظ للتعبير عن الأكل في حالة تعلقه بالخبز ، ولفظ آخر للتعبير عنه في حالة تعلقه باللحم ، وثالث في حالة تعلقه بالزبد ، ورابع في حالة تعلقه بالموز وهكذا ؛ ولكن لا يوجد فعل ولا مصدر للدلالة على الأكل على العموم أو الأكل في زمن ما ^(٢) . ولغة السكان الأصليين لجزيرة تسمانيا Tasmania (بقرب استراليا) ، لا يوجد من بين مفرداتها لفظ يدل على الصفة ؛ فاذا أرادوا وصف شيء لجئوا إلى تشبيهه بآخر مشتمل على الصفة المقصودة ؛ فيقولون مثلاً « فلان كشجرة كذا » إذا أرادوا وصفه بالطول ^(٣) .

ولذلك يرى المحدثون من علماء اللغة أن الأصول الخمسة السابقة ذكرها لا تمثل في شيء اللغة الإنسانية الأولى كما يذهب إلى ذلك مكس مولر ، بل أنها بقايا لغة حديثة قطعت شوطاً كبيراً في سبيل الرقي والكمال ، ولم تصل إليها الأمم الإنسانية إلا بعد أن ارتقت عقلياتها ونهض تفكيرها . ويذهب

(١) انظر Ribot : L'Evolution des Idées Générales p. 110

(٢) انظر Ribot, op. cit. 173, 174

(٣) انظر Ribot, op. cit. 204 et suiv.

بعضهم إلى أبعد من هذا فيقرر أنها مجرد أصول نظرية وأنها لم تكن يوماً ما موضوع لغة إنسانية (١).

(النظرية الرابعة) تقرر أن اللغة الإنسانية نشأت من الأصوات الطبيعية (التعبير الطبيعي عن الانفعالات، أصوات الحيوان، أصوات مظاهر الطبيعة، الأصوات التي تحدثها الأفعال عند وقوعها كصوت الضرب والقطع والكسر... الخ) وسارت في سبل الرقي شيئاً فشيئاً تبعاً لارتقاء العقلية الإنسانية وتقدم الحضارة واتساع نطاق الحياة الاجتماعية وتعدد حاجات الإنسان... وما إلى ذلك. — وقد ذهب إلى هذا الرأي معظم المحدثين من علماء اللغة وعلى رأسهم العلامة وتني Whitney (٢). وذهب إلى مثله من قبل هؤلاء كثير من فلاسفة العصور القديمة ومن مؤلفي العرب بالعصور الوسطى. فقد تحدث عنه ابن جني (المتوفى عام ٣٩٢ هـ. أى من نحو ألف سنة) بكتابه الخصائص في أسلوب يدل على قدمه وكثرة القائلين به من قبله (٣).

فبحسب هذه النظرية، يكون الإنسان قد افتتح هذه السبيل بمحاكاة أصواته الطبيعية التي تعبر عن الانفعالات كأصوات الفرح والحزن

(١) هذا هو رأى الأستاذين سيس وبريال Sayce, Bréal. — انظر في ذلك Ribot, op. cit. 81,82.

(٢) من أشهر الباحثين في علم اللغة، وخاصة ناحية الدلالة (السيمنتيك)، ومن أشهر مؤلفاته: حياة اللفظة (ظهر عام ١٨٧٥) واللغة ودراساتها (ظهر عام ١٨٦٧).

(٣) انظر الخصائص جزء أول ص ٤٤، ٤٥: « وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعة كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونقيق الغراب وصهيل الفرس وتزيب الظبي، ثم تولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل. »

والرعب .. وما إليها ، ومحاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة وأصوات
الأفعال والأشياء كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وحفيف الشجر
وجعجة الرحى وقعقة الشنان وصرير الباب وصوت القطع والضرب ..
وهلم جرا . وكان يقصد من هذه المحاكاة التعبير عن الشيء الذي يصدر
عنه الصوت المحاكى أو عما يلازمه أو يصاحبه من حالات وشئون . واستخدم
في هذه المحاكاة ما زود به من قدرة على لفظ أصوات مركبة ذات مقاطع .
وكانت لغته في مبدأ أمرها محدودة الألفاظ ، قليلة التنوع قريبة الشبه
بالأصوات الطبيعية التي أخذت عنها ، قاصرة عن الدلالة على المقصود .
ولذلك كان لابد لها من مساعد يصحبها فيوضح مدلولاتها ويعين على
إدراك ما ترمي إليه . وقد وجد الإنسان خير مساعد لها في الإشارات اليدوية
والحركات الجسمية . وهذا المساعد الإرادى قد نشأ هو نفسه عن الحركات
الفطرية التي تصحب الانفعالات ؛ فكان في مبدأ أمره مجرد محاكاة
إرادية لهذه الحركات ، ثم توسع الإنسان في استخدامه فحاكى به أشكال
الأشياء وحجومها وصفاتها ... وما إلى ذلك فازدادت أهميته في الحديث ،
وسد فراغا كبيرا في اللغة الصوتية . ثم أخذت هذه اللغة يتسع نطاقها تبعا
لارتقاء التفكير واتساع حاجات الإنسان ومظاهر حضارته ، وتستغنى شيئا
فشيئا عن مساعدة الإشارات ، وتبعد عن أصولها الأولى تحت تأثير عوامل
كثيرة كالتطورات الطبيعية التي تعتور الصوت وأعضاء النطق الإنساني
وكعلاقات المجاورة والمباشرة التي تعتور الدلالات ... وما إلى ذلك .

وهذه النظرية هي أدنى نظريات هذا البحث إلى الصحة وأقربها إلى
المعقول ، وأكثرها اتفاقا مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة
لها الكائنات وظواهر الطبيعة والنظم الاجتماعية . وهي إلى هذا وذاك

تفهم المشكلة التي نحن بصدددها ، وهي الأسلوب الذي سار عليه الإنسان في مبدأ الأمر في وضع أصوات معينة لمسميات خاصة والعوامل التي وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره . ولم يبق أى دليل يقينى على خطئها . ولكن لم يبق كذلك أى دليل يقينى على صحتها . وكل ما يذكر لتأييدها لا يقطع بصحتها ؛ وإنما يقرب تصورهما ويرجح الأخذ بهما .

ومن أهم أدلتها أن المراحل التي تقررهما بصدد اللغة الانسانية تتفق في كثير من وجوهها مع مراحل الارتقاء اللغوى عند الطفل . فقد ثبت أن الطفل ، في المرحلة السابقة لمرحلة الكلام ، يلجأ في تعبيره الإرادى إلى محاكاة الأصوات الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعالات ، أصوات الحيوان ، أصوات مظاهر الطبيعة والأشياء ، أصوات الأفعال .. الخ) فيحاكى الصوت قاصداً التعبير عن مصدره أو عن أمر يتصل به ؛ وثبت كذلك أنه في هذه المرحلة وفي مبدأ مرحلة الكلام ، يعتمد اعتماداً جوهرياً في توضيح تعبيره الصوتى على الإشارات اليدوية والجسمية . — ومن المقرر أن المراحل التي يجتازها الطفل في مظهر ما من مظاهر حياته تمثل المراحل التي اجتازها النوع الإنسانى في هذا المظهر ^(١) .

ومن أدلتها كذلك أن ما تقرر بصدد خصائص اللغة الانسانية في مراحلها الأولى يتفق مع ما نعرفه عن خصائص اللغات في الأمم الأولية . ففي هذه اللغات تكثر المفردات التي تشبه أصواتها أصوات ما تدل عليه ؛

(١) يطلق على هذه النظرية اسم « نظرية هيكل Haeckel » أو « نظرية التلخيص العام » وقد تسكلمنا عنها بتفصيل في كتابنا : « في التربية » ص ١٥ وتوابعها . هذا ، وسندرس بتفصيل في الباب الثانى نشأة اللغة عند الطفل وتطورها ومبلغ غشيلها لمراحل اللغة الإنسانية .

ولنقص هذه اللغات وسذاجتها وإيهامها وعدم كفايتها للتعبير لايجب
المحكمون بها مفاسدا من الاستعانة بالإشارات اليدوية والجسمية في أثناء
حديثهم لتكملة ما يفتقر إليهم من عناصر وما يعوزه من دلالة^(١). — ومن المقرر
أن هذه الأمم، لبعدها عن تيارات الحضارة وبقائها بمعزل عن أسباب
النهضات الاجتماعية، تمثل إلى حد كبير النظم الإنسانية في عهدها الأولى.

(١) انظر ص ٩ وتعليق رقم ٣.

الفصل الرابع

نشأة مراكز اللغة

تقدم أن الإنسان لا يمتاز عن الفصائل الحيوانية الأخرى باللغة الصوتية بحسب ، بل يمتاز عنها كذلك باشمال مخه على مراكز تشرف على مختلف مظاهر هذه اللغة (مركز الكلام ، مركز حفظ الأصوات ، مركز الكلمات المرئية... الخ) (١).

وقد اختلف الباحثون اختلافاً كبيراً في نشأة هذه المراكز في الفصيلة الإنسانية .

فالقائلون باستقلال النوع الإنساني في نشأته عن الأنواع الحيوانية الأخرى يذهبون إلى أنه قد خلق مزوداً بهذه المراكز كما خلق مزوداً بخصائصه الأخرى كاعتدال القامة وإدراك المعاني الكلية... وما إلى ذلك . ويرون أن هذه المراكز كانت في مبدأ الخلق ساذجة قاصرة ؛ ثم ارتقت في بعض الشعوب حتى وصلت إلى شأو كبير في الدقة والنضج ؛ على حين أنها جمدت في شعوب أخرى فلم تنزحزح كثيراً عن الحالة الساذجة التي خلقت عليها . ويرجع الفضل في ارتقاءها إلى عوامل كثيرة منها كثرة استخدامها في وظائفها وما تمرن عليه من عادات مكتسبة واتساع الحضارة الإنسانية وارتقاء التفكير.. وهلم جرا .

(١) انظر ص ٢١ . — هذا ولا يتسع المقام للكلام عن هذه المراكز ووظائفها وطريقة أدائها لها ؛ على أن هذا من بحوث علم النفس والفيزيولوجيا لامن بحوث علم اللغة .

فمركز اللغة شأنها في ذلك شأن أعضاء الحس وأعضاء الحركة في الجسم
الإنساني : تخلق مزودة بالقدرة على القيام بوظائفها ، وتظل قابلة للارتقاء
في هذه الناحية ما أتاحت لها الوسائل المواتية ؛ فان لم يتح لها ذلك قصرت
عن القيام بوظائفها أو جددت على الحالة التي كانت عليها في نشأتها الأولى .

وأما القائلون بمذهب الارتقاء وتفرع الإنسان عن غيره من الفصائل
الحيوانية ، فيرون أن الفضل في نشأة هذه المراكز عند الإنسان يرجع إلى
الظروف التي أحاطت به في مبدأ نشأته وإلى الأمور التي ألجأتها إليها مقتضيات
حياته وبخاصة ما يتصل منها بشئون دفاعه عن نفسه . وقد اختلفوا في تصوير
هذه النشأة على الرغم من اتفاقهم على الأسس السابق ذكرها . وأشهر
نظرياتهم بهذا الصدد نظرية دارون التي تتلخص في أن الإنسان كان في
الأصل من الفصائل المتسلقة الأشجار ؛ ثم اضطرت ظروف قاهرة إلى العيش
على الأرض ، حيث تعرض لإغارات الحيوانات القوية وسطوها عليه . فاستخدم
في مبدأ الأمر في مقاومتها أنيابه وأعضاء جسمه كما كان يفعل من قبل وكما
تفعل أفراد فصيلته . ولكن هذه الوسيلة كانت تضطره إلى الارتقاء في
أحضان عدوه ، فتعرض حياته للخطر . فهدته غريزة المحافظة على الحياة إلى
وسيلة أخرى تدفع عنه عدوان الحيوان بدون أن تضطره إلى الاصطدام
به . وذلك بأن يقذف عليه عن بعد قطعة من حجارة أو خشب أو معدن... ،
أو بأن يمسك بطرف عصا ويدفعه عنه أو يضربه بطرفها الآخر . وقد كان
لهذا الأسلوب الجديد أثران كبيران في حياة الإنسان .

أحدهما أنه يضطره إلى الوقوف على رجلين اثنين في أثناء دفاعه عن
نفسه . ومن تكرار هذه الوقفة أخذت قامته تعتلد شيئاً فشيئاً حتى استوى
القسم الأعلى من جسمه مع أطرافه السفلى ، وأخذت عادة المشي على أربع

تضعف بالتدريج حتى انقرضت (وإن كانت تظهر في بعض مراحل الطفولة الانسانية وفقاً لقوانين الوراثة النوعية التي تقضى بأن يجتاز الطفل في سبيله من الطفولة إلى الرجولة نفس المراحل التي اجتازها النوع في سبيله من الحيوانية إلى الانسانية ومن الوحشية إلى الحضارة) .

وثانيهما (وهو الذي يهمننا في موضوعنا) أن هذا الأسلوب الدفاعي قد أعفى الإنسان من استخدام فكّه وأسنانه في الدفاع عن نفسه ؛ فتعطلت هذه الأعضاء عن القيام بجزء من وظيفتها ؛ ونجم عن ذلك تقلص العضلات والعظام الصدغية التي تتحرك مع الفم ، وترتب على هذا التقلص أن اتسع مجال النمو للججمة فزاد حجمها عما كانت عليه ؛ وبتوسع حجم الججمة اتسع مجال النمو للمخ ، فزاد حجمه ، ونشأت به مراكز جديدة لم تكن به من قبل ، من أهمها مراكز اللغة التي نحن بصدد الكلام عنها .

ولتأييد هذا الأثر الأخير ، قام العلامة أنتوني Anthony بتجربة على عدد من الجراء (الكلاب الصغيرة) . وذلك بأن استأصل جزءاً من عضلاتها وعظامها الصدغية ، وتتبع نمو جماجمها بعد هذه العملية ؛ فقبين له أنها أخذت تتسع أكثر من المعتاد .

وقد تصدى كثير من العلماء المحدثين للتجربى عن هذه الحقائق ، فثبت لهم فسادها من نواح كثيرة لا يهمننا منها الآن إلا الناحية المتعلقة بنشأة مراكز اللغة . فقد ظهر لهم بهذا الصدد أن تعطيل الفك والأسنان ، وإن نجم عنه اتساع في الججمة ، لا يترتب عليه مطلقاً اتساع في حجم المخ أو اختلاف في تعاريجه وشكل تكوينه . والتجربة التي قام بها أنتوني

تدل هي نفسها على صحة ذلك . فقد ظهر له أن جماجم الجراء قد انحسرت
عن أنماخها ، بدليل أن الآثار التي تنطبع عليها من ملاصقتها للمخ قد
انمحت . فاتساع الجمجمة الناجم عن تقلص عضلات الصدغ وعظامه
لا يتبعه إذن اتساع في حجم المخ أو نشأة مراكز جديدة كما يزعم دارون .
وكثيراً ما تتسع الجمجمة عند بعض الناس اتساعاً غير عادي لسبب
آخر غير تقلص عضلات الصدغ وعظامه . ولكن لم يحدث مطلقاً في حالة
من حالات هذا الاتساع أن زاد حجم المخ أو تغيرت صورته . وعلى
العكس من ذلك نمو المخ نفسه . فإنه يرغب الجمجمة على الاتساع ويشكلها
بالشكل الذي يتفق مع نموه . فان مقاومتها ، بأن كان عظم اليافوخ ^(١) قد
اشتمد قبل أوانه ، تغلب على مقاومتها ، وشق لنفسه طريقاً على أي وجه :
فأحياناً يدفعها إلى الأمام فينشأ الشخص بارز الجمجمة ؛ وأحياناً يدفعها إلى
الخلف فينشأ الشخص أحذب الرأس ؛ وأحياناً يدفعها إلى أعلى فينشأ مسنم
الرأس ؛ وأحياناً يدفعها من ناحيتين أو أكثر فينشأ مدنخ الرأس ^(٢) ..
وهكذا .. فالطريق الطبيعي للارتقاء إن كان ثمة ارتقاء ، هو أن يتسع المخ
أولاً وتوجد فيه مراكز لم تكن موجودة من قبل ويتبع ذلك اتساع في
الجمجمة ، لا أن تتسع الجمجمة أولاً ويتبعها اتساع المخ كما يقول دارون
ومن هنا نموه .

على أن الارتقائيين لم يكونوا في حاجة إلى هذه الفروض التعسفية
لتعليل نشأة مراكز اللغة بطريقة تتفق مع مبادئهم . فقد كان في إمكانهم

(١) حيث يلتقي عظام مقدم الرأس بعظم مؤخره وهو الذي يكون ليناً في الصبي .

(٢) « رجل مدنخ الرأس أي في رأسه ارتفاع وانخفاض » المخصص لابن سيدة
جزء أول ص ٦٢ . والعامة تقول شخص برأسين أو برءوس .

أن يذهبوا إلى أن هذه المراكز لم تنشأ من العدم ، بل كانت نتيجة تطور
لمراكز قديمة أو لأجزاء من مراكز قديمة . كان في إمكانهم مثلاً أن
يذهبوا إلى أن جزءاً من مراكز الحركة الخاصة بعضلات الوجه
Centre des mouvements des muscles de la face قد تخصص في
حركة أعضاء النطق . ومع تقادم الزمن وكثرة مزاولته لهذه الوظيفة تشكل
بالشكل الذي يتفق معها ، واستقل عن غيره ، وأخذ يسير في سبيل الارتقاء
حتى وصل إلى الحالة التي هو عليها الآن . كان في إمكانهم أن يقولوا هذا بصدد
مركز الكلام ويقولوا مثله بصدد المراكز اللغوية الأخرى ، فيتقوا معظم
ما وجه إلى فروضهم السابقة من اعتراضات ، ويكون مذهبهم أدنى إلى
القبول وأكثر اتفاقاً مع حقائق الأمور . وذلك أنه بالموازنة بين مخ
الإنسان وأنماخ الحيوانات القريبة منه ، يظهر أن مراكزه اللغوية — على
فرض أنها لم تكن موجودة في أصل خلقته — كانت نتيجة تشكيل جديد
لبعض المراكز الموجودة في أنماخ هذه الحيوانات .

الفصل الخامس

المراحل الأولى التي اجتازتها اللغة الإنسانية

تقدم أن اللغة الإنسانية قد نشأت ناقصة ساذجة مبهمة في نواحي أصواتها ومدلولاتها وقواعدها ، ثم سارت بالتدريج في سبيل الارتقاء^(١) . وقد اختلف الباحثون اختلافاً كبيراً في بيان المراحل التي اجتازتها في هذا السبيل .

فبعضهم نظر إلى الموضوع من الناحية الصوتية ، فحاول أن يكشف عما كانت عليه أصوات اللغة الإنسانية في مبدأ نشأتها وعن مراحل ارتقاءها . — وقد ذهب معظم هؤلاء إلى أن اللغة قد سارت بهذا الصدد في ثلاث مراحل : (المرحلة الأولى) مرحلة الصراخ Le Cri . — وفي هذه المرحلة لم يكن في أصوات اللغة الإنسانية أصوات مد (وهي الأصوات التي نرمرز إليها بحروف اللين) ولا أصوات ساكنة (وهي الأصوات التي نرمرز إليها بالحروف الساكنة) ؛ وإنما كانت مؤلفة من أصوات مبهمة تشبه أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعال كالضحك والبكاء والصراخ ، وأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأشياء كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وحفيف الشجر وجمعجة الرحي وصوت القطع والضرب وهلم جراً . (والمرحلة الثانية) مرحلة المد Vocalisation ، وفيها ظهرت أصوات اللين في اللغة الإنسانية .

(والمرحلة الثالثة) مرحلة المقاطع Articulation ، وفيها ظهرت الأصوات الساكنة في اللغة الإنسانية (الباء ، التاء ، الثاء . . . الخ) . ويعتمد أصحاب هذه النظرية في تأييدها على أمور مستمدة من لغة الطفل ولغات الأمم الأولية .

أما فيما يتعلق بالطفل فقد ظهر أن أصواته تتجاوز نفس المراحل التي ذكرها أصحاب هذه النظرية . فأصواته في المبدأ يتألف معظمها من الصراخ والأصوات المبهمة المشبهة لأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة ، ثم تكثر لديه في المرحلة التالية أصوات المد ، وفي آخر مرحلة يجتازها قبل أن يظهر لديه التقليد اللغوي ، وهي المرحلة التي يسميها علماء النفس بمرحلة « التمرينات النطقية » ، تكثر في نطقه الأصوات الساكنة^(١) . — وقد أشرنا فيما سبق إلى أن كثيراً من العلماء يرى أن المراحل التي يجتازها الطفل في مظهر ما من مظاهر حياته تمثل المراحل التي اجتازها النوع الانساني في هذا المظهر^(٢) .

وأما فيما يتعلق بلغات الأمم الأولية فقد لوحظ في كثير منها أن الأصوات المبهمة وأصوات المد نفوق كثيراً الأصوات الساكنة في كميتها وأهميتها في الدلالة^(٣) . وقد تقدم أن هذه الأمم — لبعدها عن تيارات

(١) سنتكلم عن هذا الموضوع بتفصيل في الباب الثاني .

(٢) انظر ص ٣٣ وتعليق رقم ١ .

(٣) ففي لغات الفيجيين والهوتنتوت وقبائل أخرى من السكان الأصليين لأمریکا الشمالية تكثر الأصوات المبهمة المشبهة لأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة . V. Ribot, op. cit. p. 78 . وفي لغات السياميين والصينيين مثلاً نرى أن معظم ظواهر الدلالة تنصل بحروف المد . فـ كلمة « ها » مثلاً معناها البحث في لغة الساميين ، فإذا مدت ألفها قليلاً وفتح الفم في نطقها à أصبح معناها الوباء ، وإذا مدت قليلاً بدون فتح الفم أصبح معناها خمسة .

الحضارة وبقائها بمعزل عن أسباب النهضة الاجتماعية — تمثل إلى حد كبير الأساليب الإنسانية في عهودها الأولى^(١).

وليس من بين هذه الأدلة ما يمكن عده برهاناً قاطعاً على صحة هذه النظرية. بل إن معظم المحدثين من علماء اللغة يقطعون بفسادها. وحجتهم في ذلك أنه لا يوجد من بين اللغات الإنسانية المعروفة — سواء في ذلك اللغات الحية والميتة ، والراقية والسادجة — لغة خالية من أصوات اللين أو من الأصوات الساكنة ، وأنه من المعتذر تصور لغة إنسانية عارية عن أحد هذين النوعين. هذا إلى أن ظهور الأصوات ذات المقاطع (الأصوات الساكنة) في لغة الإنسان لم يكن ليمتوقف على ارتقاء في لغته أو على تطور صوتي أو على مراحل يجتازها في هذا السبيل كما يزعم أصحاب هذه النظرية. لأن الأصوات ذات المقاطع توجد عند كثير من فصائل الحيوانات نفسها ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك^(٢).

وبعضهم نظر إلى الموضوع من ناحية مفردات اللغة ودلالة بعضها على معان جزئية وبعضها الآخر على معان كلية ، وحاول أن يبين أي القسمين كان أسبق ظهوراً من الآخر.

وقد اختلف هؤلاء فيما بينهم وانقسموا إلى فريقين :

الفريق الأول — وعلى رأسه مكس مولر — يرى أن اللغة الإنسانية قد بدأت بألفاظ دالة على معان كلية ، ثم انشعبت عن هذه الألفاظ الكلمات الدالة على المعاني الجزئية. — ودليلهم على هذا أن الأصول المشتركة التي ترجع إليها المفردات في جميع اللغات الهندية — الأوروبية ، والتي

(١) انظر ص ٣٤ .

(٢) انظر ص ١٩ وتوابعها .

تمثل في نظرم اللغة الإنسانية في أقدم عصورها ، تدل على معان كلمية كما سبقت الإشارة إلى ذلك ^(١) .

وقد ناقشنا هذه النظرية فيما تقدم فتبين فسادها ، وظهر أن هذه الأصول لا تمثل اللغة الإنسانية في عهودها الأولى ، وأنها بقايا من لغة راقية لم تصل إليها الأمم الإنسانية إلا بعد أن اجتازت في حياتها اللغوية مراحل طويلة ، وأن بعض الباحثين يذهب إلى أبعد من هذا فيقرر أننا بصدد أصول نظرية لم تكن يوماً ما لغة كلام ^(٢) .

والفريق الثاني يرى أن اللغة الإنسانية بدأت بألفاظ دالة على معان جزئية . — وهذا الرأي أدنى إلى الصحة ، وأقرب إلى المعقول ، وتؤيده حالة اللغة عند الطفل وعند الأمم الأولية كما سبقت الإشارة إلى ذلك ^(٣) .

وبعضهم يبحث في هذا المتطور من ناحية ثالثة قريبة من بعض الوجوه من الناحية السابقة ، فيتساءل عن المراحل التي ظهر فيها كل من الاسم والصفة والفعل والحرف في الكلام الإنساني . وأشهر نظرية بهذا الصدد هي نظرية العلامة ريبو Ribot التي تقرر أن الصفة هي أول ما ظهر في اللغة الإنسانية ، ثم تلتها أسماء المعاني وأسماء الذوات ، ثم ظهرت الأفعال (وبظهور الأفعال دخلت اللغة الإنسانية في أهم مرحلة من مراحل رقيها ؛ فلا يخفى أهمية الأفعال في الحديث وكثرة وظائفها في الدلالة) ، ثم اختتمت مراحل الارتقاء بظهور الحروف ^(٤) .

(١) انظر ص ٢٧ .

(٢) انظر صفحات ٢٩ — ٣١ .

(٣) انظر صفحات ٢٩ — ٣١ وانظر كذلك الفصل الثاني من الباب الثاني .

(٤) انظر Ribot, op. cit. 88 — 96 .

وقد اعتمد في تأييد نظريته هذه على أدلة كثيرة بعضها يرجع إلى لغة الطفل ولغات الأمم الأولية ، وبعضها يرجع إلى بحوث إيتيمولوجية (دراسة أصول الكلمات) أو نفسية . فمن ذلك أن الأصول الهندية الأوروبية التي كشفها «مكس مولر» يتألف معظمها من كلمات دالة على صفات ، وفي هذا دليل على أن الصفات كانت أسبق الكلمات ظهوراً في اللغة الإنسانية ؛ وأن معظم أسماء المعاني وأسماء الذوات مشتقة في كثير من اللغات من كلمات دالة على صفات (grand, grandeur; free, freedom...etc) ، وفي هذا دليل على أن الأسماء لم تظهر في اللغة الإنسانية إلا بعد ظهور الصفات ؛ وأن معظم الأفعال في اللغات الهندية الأوروبية مأخوذة من كلمات دالة على صفات أو أسماء مضاف إليها بعض حروف من ضمائر ، وفي هذا دليل على أن الأفعال قد ظهرت بعد ظهور الصفات والأسماء ؛ وأن كثيراً من لغات الأمم الأولية مجردة من الحروف ^(١) ، وأن لغة الطفل لا تظهر فيها الحروف إلا في آخر مرحلة من مراحلها ، ففي المراحل الأولى ينطق الطفل بأجزاء الجملة عارية عن الحروف وعن علامات الربط ^(٢) ، وفي خلو اللغات الأولية ولغة الطفل في مراحلها الأولى من الكلمات الدالة على الحروف دليل على أنها كانت آخر ما ظهر في اللغات الإنسانية .

وليس من بين هذه الأدلة ما ينهض برهاناً قاطعاً على صحة هذه النظرية ؛ بل إنها ظاهرة الخطأ في بعض نواحيها ، وخاصة إذ تقرر أن الصفات كانت أسبق ظهوراً في اللغة الإنسانية من أسماء الذوات . ففي هذه الناحية يوجه إليها نفس المآخذ التي وجهناها إلى نظرية مكس مولر ^(٣) .

(١) سيأتي الكلام على ذلك في اللغات غير المنصرف (انظر صفحتي ٤٧ ، ٤٨) .

(٢) سيأتي الكلام عن ذلك بتفصيل في الفصل الثاني من الباب الثاني .

(٣) انظر صفحات ٢٩ — ٣١ وآخر ٤٢ وأول ٤٣ .

وبعضهم يبحث في هذا التطور من ناحية رابعة تتعلق بقواعد الصرف والتنظيم (المورفولوجيا والسنكس) ^(١).

وأشهر نظرية بهذا الصدد هي النظرية التي قال بها العلامة شليجل Schlegel وتابعه فيها جبهة كبيرة من علماء اللغة . وهي تقسم اللغات الانسانية من هذه الناحية إلى ثلاثة أقسام :

(القسم الأول) اللغات «المتصرفة» Flexionnelles, on à flexion أو التحليلية Analytique . — ويمتاز هذا القسم من ناحية «المورفولوجيا» بأن كلماته تتغير معانيها بتغير مبانيها ، ومن ناحية «السنكس» بأن أجزاء الجملة يتصل بعضها ببعض بروابط مستقلة ^(٢) تدل على مختلف العلاقات . وذلك كاللغة العربية . فإن كلماتها تتغير معانيها بتغير بانياتها : فتقول علم للدلالة على المصدر وعلم للدلالة على الفعل في الماضي ، وعلم للدلالة على تعدي الفعل ، وعلم للدلالة على الأمر ، والعلوم للدلالة على جمع العلم ، والعلوم للدلالة على ماوقع عليه العلم ، والعلامة للدلالة على وسيلة العلم .. وهلم جرا . هذا من ناحية الصرف . أما من ناحية التنظيم فإن عناصر جملها يتصل بعضها ببعض عن طريق روابط مستقلة تشير إلى مختلف العلاقات : فتقول مثلاً ذهب محمد وعلى من المنزل إلى الجامعة ، فتأتي بواو قصيرة ونون زائدة بعد دال محمد للدلالة على أنه أحدث الحدث ، وتأتي بالواو العاطفة بين محمد وعلى للدلالة على عطف عنصر من عناصر الجملة على آخر ، وبمن للدلالة على الابتداء ، وبإلى للدلالة

(١) انظر معنى هاتين الكلمتين بالتفصيل في كتابنا علم اللغة ، الطبعة الثانية صفحة ٦٠٦ .

(٢) نقصد باستقلال الروابط زيادتها عن أصوات الكلمة . فالواو القصيرة (الضمة) والنون الماكنة للمعتقان بكلمة «محمد» في جاء محمد «محمدن» تعتبران من الروابط المستقلة . وما تشيران في هذا التركيب إلى أن مدلول محمد هو الذي أحدث الحدث .

على الانتهاء . — وما قيل في اللغة العربية يقال مثله في بقية اللغات السامية وفي اللغات الهندية — الأوروبية .

وسميت هذه الطائفة من اللغات «المتصرفة» لتغير ابنيتها بتغير المعاني؛ و «بالتحليلية» لما تتخذة حيل الجملة من تحليل أجزائها وربطها بعضها ببعض بروابط تدل على العلاقات .

(القسم الثاني) اللغات «الاصقية» أو «الوصلية» Agglutinantes, ou, Agglomérantes, ou, synthétiques . ويمتاز هذا القسم من ناحيتي المورفولوجيا والسنتكس بأن تغير معنى الأصل وعلاقته بما عده من أجزاء الجملة يشار إليهما بحروف تلتصق به . وتوضع هذه الحروف أحيانا قبل الأصل فتسمى «سابقة» Préfixes وأحيانا بعده فتسمى «لاحقة» Suffixes^(١) . وبعض هذه الحروف ليس له دلالة مستقلة ، ولكن معظمها كان في الأصل كلمات ذات دلالة ثم فقدت معانيها وأصبحت لا تستخدم إلا مساعدة للدلالة على تغير معنى الأصل الذي تلتصق به أو للإشارة إلى علاقته بما عده من أجزاء الجملة . ومن أشهر هذه الفصيلة اللغة اليابانية واللغة التركية

(١) يختلف هذا الأسلوب باختلاف اللغات . فبعض اللغات الاصقية تستخدم الحروف «السابقة» كاللغة البنغالية ، وبعضها يستخدم الحروف «اللاحقة» كالتركية ، فنزل في التركية مثلا يقال له إو Ew فإذا أردت أن تقول خارج المنزل ألصقت بآخره دالا مكسورة ونونا للدلالة على المجاوزة فنقول إودن Ewden ، وإذا أردت جمعه ألصقت بآخره لاما مكسورة وراء فنقول إولر Ewler ، وإذا أردت أن تقول خارج المنازل ألصقت بالجمع الدال والنون الدالين على المجاوزة فنقول إولردن Ewlerden .

وقد يجتمع الطريقتان في لغة واحدة فتستخدم أحيانا الحروف السابقة وأحيانا الحروف اللاحقة .

وبعض لغات الأمم البدائية كلغة الايروكويين Iroquois ^(١) والبفتويين Bantous ^(٢).

وسميت هذه اللغات «بالصقية» أو «الوصلية» للطريقة التي تتبعها حيال الأصل إذ تلتصق به حروفا زائدة عن حروفه لتوضيح المعنى المقصود منه أو للإشارة إلى علاقته بما عداه من أجزاء الجملة.

(القسم الثالث) اللغات «غير المتصرفة» monosyllabiques «أو العازلة» Isolantes. ويمتاز هذا القسم من ناحية «المورفولوجيا» بأن كلماته غير قابلة للتصرف لاعن طريق تغيير البنية ولا عن طريق لصق حروف بالأصل. فكل كلمة تلازم شكلا واحداً وتدل على معنى ثابت لا يتغير. ويمتاز من ناحية «السنكس» بعدم وجود روابط بين أجزاء الجملة للدلالة على وظيفة كل منها وعلاقته بما عداه، بل توضع هذه الأجزاء بعضها بجانب بعض، وتستفاد وظائفها وعلاقاتها من ترتيبها أو من سياق الكلام. — ويدخل في هذا القسم اللغة الصينية وكثير من لغات الأمم البدائية.

وسميت هذه اللغات «بغير المتصرفة» لأن كلماتها لا تتصرف ولا يتغير معناها، و«بالعازلة» لأنها تعزل أجزاء الجملة بعضها عن بعض ولا تصرح بما يربطها من علاقات.

(١) عشائر من الهنود الحمر (السكان الأصليين لأمريكا الشمالية). — وقد يلحق بالأصل الواحد في لغتهم عدد كبير من هذه الحروف للدلالة على كثير من العلاقات والمعاني، فتصبح الكلمة الواحدة كثيرة الأصوات كبيرة المدلول. فقد روى العلامة ريبو أنه توجد في لغتهم كلمة واحدة تدل على ما يأتي: «اطلب نقودا من هؤلاء الذين جاءوا ليشتروا مني الأقمشة». ويكثر كذلك هذا النوع من الكلمات الطويلة بلغة الإسكيمو V, Ribot, op. cit. 86.

(٢) يطلق هذا الاسم على سكان القسم الجنوبي بأفريقيا الاستوائية (ماعد قبيلتي الهوتانتوت والبوشيمان Hotentots Bochimans). وترجع لغاتهم إلى فصيلة واحدة على الرغم من اختلاف أصولها الشعبية.

ويرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة الانسانية في مبدأ نشأتها كانت من النوع الثالث (اللغات غير المتصرفة) ؛ ثم ارتقت إلى النوع الثاني (اللغات اللصقية) ؛ ولم تصل إلى حالة النوع الأول (اللغات المتصرفة) إلا في آخر مرحلة قطعها في هذا السبيل . — غير أن بعض اللغات الإنسانية قد وقفت في نموها فلم تتجاوز المرحلة الأولى كاللغة الصينية ، أو لم تتجاوز المرحلة الثانية كاليابانية والتركية .

ويستدلون على صحة هذه النظرية بأدلة مستمدة من لغة الطفل ولغات الأمم الأولية على النحو الذي تقدم شرحه في النظريات السابقة .

ولكن ليس من بين أدلتها ما ينهض برهاناً قاطعاً على صحتها . بل قامت أدلة كثيرة على خطئها . فمن ذلك أن الأساليب الثلاثة التي تعرض لها (التصرف والاصق والعزل) توجد مجتمعة في كل لغة إنسانية ، وأنه من المتعذر أن نعثر على لغة عارية عن أسلوب منها .

فاللغة العربية ، كما يوجد بها مظاهر من أسلوب التصرف والتحليل كما تقدم ، يوجد بها مظاهر كثيرة من الأسلوبين الآخرين . فهي تسير على طريقة اللصق بالحروف «اللاحقة» و«السابقة» في حالات كثيرة كجمع المذكر السالم وجمع المؤنث السالم والتعدي بالهمزة (قائم ، قائمون — زينب زينبات — قام على ، وأقام على الصلاة) ... وهلم جرا . وتسير كذلك على طريقة العزل في كثير من التراكيب : فبعض الجمل الاسمية والجمل الفعلية لا ترتبط عناصرها بعضها ببعض بأي رابط ملفوظ ، وإنما تفهم العلاقة بينها من ترتيبها أو من السياق ، مثل «ضرب موسى عيسى» ؛ وجميع الجمل على هذا النحو في اللغات العامية المتشعبة عن العربية ، فقد تجردت جميعها من

علامات الإعراب الدالة على وظائف الكلمات وعلاقة أجزاء الجملة بعضها ببعض .

وكذلك جميع اللغات الهندية — الأوروبية . فالإنجليزية والفرنسية
مثلا تسيران أحيانا على طريقة التصريف والتحليل :

Je vois, je voyais, je vis, nous voyons, voir, la vue ; vous voyez que la linguistique est une science sociale. I see, I saw, I have seen; to see, the sight; you see that the science of languages is a social one.

وتسيران أحيانا على طريقة اللصق :

j'ajoute, j'ajouterai ; tigre, tigresse. I care, I carced ; careful, carefulness.

وتسيران أحيانا على طريقة العزل : Pierre bat Paul. . Tom beats Dick :

(ففى هذه الجمل لا يميز الفاعل من المفعول إلا بمجرد ترتيبه) .

ومثل هذا يقال فى جميع اللغات الإنسانية . فلسنا إذن بصدد فضائل لغوية متميزة ، بل بصدد أساليب مستخدمة فى جميع اللغات .

الفصل السادس

فصائل اللغات

- ٩ -

أشهر الآراء في فصائل اللغات

ومهما يكن من شيء بشأن المراحل الأولى التي اجتازتها اللغة بعد نشأتها ، والتي عرضنا لأشهر النظريات بصددتها في الفقرة السابقة ، فإن اللغات الإنسانية قد انتهى بها الأمر في تطورها وانشعابها^(١) أن انقسمت إلى عدة فصائل ، وانقسمت كل فصيلة منها إلى عدة شعب وكل شعبة إلى عدة لغات ، وكل لغة إلى عدة لهجات .

وقد اختلف العلماء اختلافاً كبيراً في تقسيم اللغات تبعاً لاختلافهم في الأساس الذي يقوم عليه هذا التقسيم .

ولكن أشهر النظريات وأمثلها بهذا الصدد هي نظرية مكس مولر Max Muller التي تراعى في تقسيم اللغات إلى فصائل أن يجمع أفراد كل فصيلة منها صلات قرابة لغوية ، فتتفق في أصول الكلمات وقواعد البنية وتركيب الجمل ... وما إلى ذلك ، ويتكون من الأمم الناطقة بها مجموعة إنسانية متميزة ، ترجع إلى أصول شعبية واحدة أو متقاربة ، وتؤلف بينها

(١) عرضنا بتفصيل للعوامل التي تؤدي إلى تطور اللغة وانشعابها في كتابنا « علم اللغة » (الفصول الخامس والسادس والسابع والثامن) و « اللغة والمجتمع » (الفصلين الأول والثالث) .

طائفة من الروابط الجغرافية والتاريخية والاجتماعية .
وعلى هذه الأسس ترجع نظرية مكس مولر جميع اللغات الانسانية إلى
ثلاث فصائل : الفصيلة الهندية الأوروبية ؛ والفصيلة السامية الحامية ،
والفصيلة الطورانية^(١) . وسنتكلم على كل فصيلة منها على حدة فيما يلي :

— ٢ —

الفصيلة الأولى : الهندية الأوروبية

Langues Indo-Européennes

تشمل هذه الفصيلة ثمانى طوائف من اللغات وهى :
١ — « اللغات الهندية - الإيرانية » أو « اللغات الآرية » وتشمل
شعبتين :

إحداهما شعبة اللغات الهندية (السانسكريتية Sanskrit والبراكريتية
Prakrit واللغات الهندية الحديثة Langues Néo-indoues .. الخ) ؛
والأخرى شعبة اللغات الإيرانية (الفارسية القديمة Vieu Perse ؛

(١) فطن كثير من العلماء قبل مكس مولر إلى صلات القرابة التى تربط اللغات
الهندية والآرية والأوروبية بعضها ببعض ، وإلى الصفات التى تشترك فيها أفراد الفصيلة
الحامية السامية ؛ كما أشرنا إلى ذلك فى كتابنا « علم اللغة » (ص ٤١) وفى كتابنا
« فقه اللغة » (صفحتى ٥ ، ٦) . — ولكن يرجع الفضل الى مكس مولر فى تسكيلة
هذه البحوث ونشرها ، وفى دراسة الفصيلة الهندية الأوروبية على الأخص دراسة
عميقة مستوعبة ، وفى إضافة فصيلة ثالثة إلى الفصيلتين السابقتين ، وهى فصيلة اللغات
الطورانية (وقد اتفق معه فى جعل هذه اللغات فصيلة ثالثة العلامة الألمانى بونسن
Bunsen فى كتابه Outlines of the philosophy of Universal History ظهر
فى نفس العصر الذى ظهر فيه بحث مكس مولر بهذا الصدد Letter on the
Classification of the Turanian Languages) ، ولهذا نسب إلى مكس مولر تقسيم
اللغات إلى هذه الفصائل الثلاث .

والزند أو الأفتسية Zend ou Avestique وهي لغة الأسفار المقدسة المسماة الأفتستا أو الزند - أفتستا ؛ والبهلوية Pehlvi ؛ والفارسية الحديثة Persan ؛ والكردية Kurde ؛ والأستية Ossète ، وهي لغة الأستيين Ossètes وهم سكان القوقاز الأوسط ؛ والأفغانية .. وهلم جرا) .

ولكنه وجوه الشبه بين هاتين الشعبتين عدما علماء اللغة طائفة واحدة سموها طائفة « اللغات الهندية الإيرانية » أو طائفة « اللغات الآرية » . وكان القدامى من علماء اللغة يتوسعون في كلمة « اللغات الآرية » فيطلقونها على جميع طوائف الفصيلة الهندية - الأوروبية ، من قبيل إطلاق الخاص على العام . ولكن المحدثين منهم آثروا العدول عن هذا الاستعمال اتقاء للخلط واللبس ، فأصبحوا يطلقون كلمة « اللغات الآرية » إلا على الطائفة التي نحن بصدد الكلام عنها ^(١) .

٢ — « اللغات الأرمنية » Langues Arméniennes

٣ — « اللغات الإغريقية » (وتشمل اللغات اليونانية القديمة ، وأشهر هذه اللغات اليونانية - الأتيكية ، والدورية ؛ وتشمل كذلك اللغات اليونانية التي تكونت في القرون السابقة للميلاد وقامت على أنقاض اللغات اليونانية القديمة ، واشتهرت عند علماء اللغة باسم « اليونانية الحديثة » ؛ وتشمل كذلك اللغات اليونانية في العصر الحاضر) .

٤ — الألبانية .

٥ — « اللغات الإيطالية » (وتشمل الأسكية Osque ، والأمبرية السمنية Samnite — Ombrien ، واللاتينية ، واللغات الرومانية —

Langues Romanes وهي المتفرعة من اللاتينية كالفرنسية والبرتغالية والإيطالية والإسبانية ولغة رومانيا ... الخ).

٦ — «اللغات السلتية» Langues Celtiques (التي كانت لغات شعوب السلت أو الكلت les Celtes ، وقد طغت عليها الآن اللغات الفرنسية والإنجليزية والإسبانية ، ولكن بقي بعض أشكال منها في كثير من اللهجات المحلية بإيرلندا وويلز ومنطقة البريتون Bretagne بغرب فرنسا).

٧ — «اللغات الجرمانية» Langues Germaniques وتشمل ثلاث

شعب :

أولها شعبة الجرمانية الشرقية وهي اللغة الجوتية Gothique (وهي لغة قبائل الجوث Goths وهو شعب قديم كان يسكن جرمانيا الشرقية)؛ وثانيها شعبة اللغات الجرمانية الشمالية . وهي لغات أيسلندا والدانيمرك والسويد والنرويج ؛

وثالثها شعبة اللغات الجرمانية الغربية وتشمل الإنجليزية - السكسونية ، والإنجليزية الحديثة ، والهولندية واللغة الفلامندية (لغة مقاطعة الفلاندر ببلجيكا . ويتألف من هذه اللغة مع اللغة الهولندية فرع آخر واحد يسمى فرع اللغات النمراندية) واللغات الألمانية ... الخ.

٨ — «اللغات البلطيقية السلافية» وتشمل شعبتين :

إحداهما شعبة اللغات البلطيقية : وهي الليتوانية Lituanienne (لغة ليتوانيا Lituanie) والليتونية Lette (لغة ليتوانيا Lettonie أو لاتفيا Latvia) والبروسية القديمة ؛

والأخرى شعبة اللغات السلافية أو الصقلبية : وهي السلافية القديمة ،

والروسية ، والبولونية ، والتشيكية ، والسربية — الكرواتية ، والبلاغارية الحديثة (١) .

ومن هذا يظهر أن اللغات الهندية — الأوروبية هي أكثر اللغات الإنسانية انتشاراً ، إذ يتكلم بها الآن جميع سكان أوروبا والأمريكيتين وأستراليا وجنوب أفريقيا (ما عدا بعض جماعات قليلة بأوروبا تتكلم البسكية أو الفينية أو الجرية أو التركية . . . وما إلى ذلك ، وما عدا السكان الأصليون للأمريكيتين وأستراليا وجنوب أفريقيا اللذين انقرض معظمهم ولم يبق منهم الآن إلا عدد يسير آخذ في الانقراض) ، ويتكلم بها كذلك قسم كبير من سكان آسيا (الهند ، فارس ، أفغانستان ، الكرديستان ، القوقاز الأوسط ، أرمينيا . . . الخ) .

والشعوب الناطقة بهذه الفصيلة هي أرقى الشعوب مدنية في العصر الحاضر ، وأعظمها نشاطاً ، وأكبرها شأناً ، وأكثرها إنتاجاً في مختلف فروع الحياة ، وأجلها أثراً في الحضارة الإنسانية الحديثة . ويرجع الفضل في انتشار هذه الفصيلة إلى عوامل كثيرة أهمها الغزو والاستعمار . فعلى أثر غزو الآريين للهند انتشرت لغاتهم في هذه البلاد وقضت على لغات السكان الأصليين (لم يبق من هذه اللغات إلا آثار ضئيلة منعرض لها في كلامنا عن الفصيلة الثالثة) . وعلى أثر استعمار الأوروبيين للأمريكيتين وأستراليا وجنوب أفريقيا انتقلت إلى هذه المناطق اللغات الإنجليزية والإسبانية والفرنسية .

(٢) أما البلاغارية القديمة قبل أن يتغلب عليها اللسان الصقلي فهي من فصيلة اللغات الفينوانية . انظر آخر صفحة ٦٤ وأول صفحة ٦٥ .

أما الموطن الأول لهذه الفصيلة فلا نكاد نعرف شيئا يقينيا عنه ؛ وقد ذهب العلماء بصدده مذاهب كثيرة تعتمد في معظم نواحيها على الحدس والتخمين وفي نواح أخرى على حجج ضعيفة لا يطمئن إلى مثلها التحقيق العلمى : فمن قائل إنها نشأت في آسيا الوسطى بمنطقة التركستان وما إليها ؛ ومن قائل إنها نشأت بأوروبا الشرقية بالمناطق الروسية ، ومن قائل إنها نشأت بمناطق بحر البلطيق .

وتمتاز هذه الفصيلة بكثرة شعبها واتساع هوة الخلاف بين أفرادها . فقد انقسمت إلى الطوائف الثمان السابق ذكرها ، وانقسمت كل طائفة من هذه الطوائف إلى شعب ، وكل شعبة إلى عدد كبير من اللغات ، وسلسكت كل لغة من هذه اللغات في ارتقائها سبيلا يختلف عن سبيل غيرها ؛ فكثرت وجوه الخلاف بينها ، وتضاءلت وجوه الشبه ، حتى أن بعضها لمبدو غريبا عن بعض ، ولا تظهر صلة قرابته به إلا بعد تأمل عميق . ويرجع السبب في هذا إلى عوامل كثيرة أهمها اختلاف البيئات التي انتشرت فيها هذه الفصيلة واختلاف الشؤون الاجتماعية التي اكتنفت الناطقين بكل شعبة منها .

وقد ترتب كذلك على هذه العوامل أن اختلفت كل لغة منها عما عداها في درجة رقيها ومبلغ بعدها عن أصولها الأولى . فمنها ما لا يزال جامدا على خصائصه القديمة ، ومنها ما قطع في زمن يسير مرحلة واسعة في طريق الارتقاء ، ومنها ما سار في هذه السبيل بخطى متتدة بطيئة . فانتشار الشعبة الإيرانية مثلا في مناطق عريقة في الحضارة ، وتأثرها باللغات التي كانت سائدة في هذه المناطق ... كل ذلك وما إليه قد ذلل لها وسائل الارتقاء ، فسارت في هذه السبيل بخطى حثيثة ، حتى وصلت في أوائل القرن الأول الميلادى

إلى شأو لم تبلغ مثله اللغات الأوروبية إلا حوالى القرن العاشر . على حين أن انتشار اللغة الليتوانية مثلاً فى منطقة زراعية ضيقة تغلب على أهلها صفة المحافظة على القديم ، وبقاء هذه المنطقة بمعزل عن تيارات الحضارة وعن المؤثرات الخارجية . . . كل أولئك قد عاق تقدمها ، فظلت محتفظة بكثير من الأشكال الأولى لفصيلتها .

— ٣ —

الفصيلة الثانية : الحامية — السامية

Langues Chamito — Sémitiques

تشمل هذه الفصيلة مجموعتين من اللغات : إحداهما مجموعة اللغات السامية ؛ وثانيتهما مجموعة اللغات الحامية .

أما مجموعة اللغات السامية ، فتتنظم طائفتين :

- ١ — اللغات السامية الشمالية وتشمل اللغات الأكادية Accadien أو الآشورية البابلية Assyro-Babyloniennes ^(١) ، واللغات الكنعانية (العبرية والفينيقية) ^(٢) ، واللغات الآرامية ^(٣) .
- ٢ — اللغات السامية الجنوبية وتشمل العربية ^(٤) واليمنية القديمة ^(٥) واللغات الحبشية السامية ^(٦) .

(١) انظر تفصيل القول فى اللغات الأكادية فى الفصل الأول من كتابنا « فقه اللغة » .

(٢) انظر تفصيل القول فى اللغات الكنعانية فى الفصل الثانى من كتابنا « فقه اللغة »

(٣) » » » فى اللغات الآرامية فى الفصل الثالث » » »

(٤) » » » فى اللغة العربية فى الفصل السادس » » »

(٥) » » » فى اللغة اليمنية القديمة فى الفصل الرابع » » »

(٦) » » » فى اللغات الحبشية السامية فى الفصل الخامس » » »

وأما مجموعة اللغات الحامية ، فتتظم ثلاث طوائف :

١ — اللغات المصرية ، وتشمل المصرية القديمة والقبطية .

٢ — اللغات الليبية أو البربرية ، وهى لغات السكان الأصليين لشمال أفريقيا (طرابلس وتونس والجزائر ومراكش والصحراء والجزر المتاخمة لها) ، فتشمل اللغات القبيلية Kabyles ، والشاوية Chaouïa (اللغات القديمة لسكان الجزائر) ، والتماشكية Tamachek (وهى اللغات القديمة لقبائل التوارج Touareg ، وهى قبائل رحاله بصحراء المغرب) ، واللغات الشلحية أو لغات الشلحا أو لغات أهل الشلوح Chellouh (لغات السكان الأصليين لجنوب مراكش) ولغات زناجة Zénaga واللغات الجونشمية Guanche (لغات السكان الأصليين لجزر قناريا Canaries بالحيط الاطلانتيق ، فى الشمال الغربى من الصحراء الكبرى) ... وهلم جرا .

٣ — اللغات الكوشيتية Couchitiques ^(١) وهى لغات السكان الأصليين للمقسم الشرقى من أفريقيا المحصور بين درجة العرض الرابعة جنوب خط الاستواء وحدود مصر (ماعدا المناطق الجبشية الناطقة بلغات سامية والتي تقدم ذكرها فى المجموعة الأولى وما عدا المناطق السودانية وما إليها التى سيأتى ذكر لغاتها فى الفصيلة الثالثة) ؛ فتشمل اللغات الصومالية ولغات الجالا ، والبديجا ، ودنقلة ، والأجاو ، والأفار أو الساهو ، والسيداما .. الخ
Somalie, Galla, Bedja, Dankali, Agaw, Afar ou Saho ويتكلم

(١) نسبة إلى كوش Cuch وهو أحد أولاد حام (انظر سفر التكوين الإصحاح العاشر الآية السادسة وتوابعها) .

باللغات الكوشية كذلك نحو ثلث سكان الحبشة .

ومن هذا يظهر أن المنطقة التي تشغلها الفصيلة الحامية — السامية أصغر كثيرا من المنطقة التي تشغلها الفصيلة الهندية الأوروبية . فبينما الفصيلة الهندية الأوروبية تشغل أوروبا والأمريكتين وأستراليا وجنوب أفريقيا وقسما كبيرا من آسيا ؛ إذ الفصيلة الحامية — السامية لا تشغل إلا بلاد العرب وشمال أفريقيا وجزءاً من شرقها (إلى درجة عرض ٤ جنوب خط الاستواء) . فمنطقتها لا تتجاوز عشرين مليون كيلو متراً مربعاً ، بها قسم كبير صحراوي (ببلاد العرب وشمال أفريقيا) ؛ وعدد الناطقين بها لا يتجاوز مائة مليون .

ولكنها تمتاز عن الفصيلة الهندية الأوروبية بأن منطقتها متماسكة الأجزاء لا يتخللها أى عنصر أجنبى .

ويقال من الناطقين بها مجموعة شديدة التجانس تتلاقى شعوبها فى أصول واحدة قريبة ، وتتفق فى أساليب الحياة ونوع الحضارة والنظم الاجتماعية .

ويجمع بين اللغات السامية (المجموعة الأولى من هذه الفصيلة) كثير من الصفات المشتركة المتعلقة بأصول الكلمات والأصوات ومخارج الحروف وقواعد الصرف والتنظيم ... وما إلى ذلك . — وقد قويت وجوه الشبه بين بعض أفرادها حتى ليحسبها الباحث مجرد لهجات للغة واحدة ^(١) .

أما مجموعة اللغات الحامية (المجموعة الثانية من هذه الفصيلة) ، فلا يوجد بين طوائفها الثلاث (المصرية والبربرية والكوشيتية) من وجوه الشبه والقرباة اللغوية أكثر مما يوجد بين كل طائفة منها ومجموعة اللغات

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع فى كتابنا « فقه اللغة » وخاصة فى مقدمته .

السامية . فاعتبارها مجموعة متميزة هو مجرد اصطلاح لا يتفق في شيء مع حقائق الأمور .

ولذلك عدل بعض المحدثين عن تقسيم هذه الفصيلة إلى مجموعتين ، وآثر جعلها بادية الأمر أربع مجموعات : السامية المصرية والبربرية والكوشيتية^(١) .

وتختلف هذه المجموعات الأربع بعضها عن بعض اختلافا غير يسير في كثير من الظواهر . ولكن بينها ، على الرغم من ذلك ، من وجوه الشبه والتقاربة اللغوية ما يسمح بجعلها فصيلة واحدة مقابلة للفصيلة الهندية - الأوروبية .

هذا ، وقد تغلبت مجموعة اللغات السامية على المجموعات الثلاث الأخرى واحتلت كثيراً من مناطقها . فاللغات القبطية والبربرية قد انهزمت أمام اللغة العربية ولم يبق منها الآن إلا فلول ضئيلة^(٢) ، وكذلك كانت نهاية الكوشيتية في صراعها مع اللغات السامية : فقد احتلت اللغات السامية معظم مناطقها ، ولم يبق الآن من اللغات الكوشيتية إلا بعض لهجات قليلة في بلاد الحبشة وفي المناطق المتاخمة لها .

وقد اشتبكت اللغات السامية نفسها في صراع بعضها مع بعض . وأول صراع حدث بينها كان صراع الآرامية مع اللغات الأكادية والكنعانية . فقد اشتبكت في صراع مع الأكادية أولاً وقضت عليها في أول القرن الرابع

(١) وهذا هو ما سار عليه العلامة مارسيل كوهين Marcel Cohen . انظر

. Les Langues du Monde p.p.81-153, en part.83.

(٢) لا تزال البربرية إلى الوقت الحاضر لغة حديث بين كثير من القبائل المغربية وخاصة في مراکش وفي بعض الواحات التابعة لطرابلس وغيرها . ومن هذه الواحات واحة « أوجلة » الواقعة عند حدود برقة من الجنوب ، فإن أهلها من البربر ولا يزالون يتكلمون البربرية إلى اليوم .

ق م . ثم صرعت العبرية في أواخر الرابع ق م . وتغلبت على الفينيقية
بآسيا في القرن الأول ق م . والصراع الثاني كان صراع العربية مع أخواتها
فقد اشتبكت في صراع مع اللغات اليمنية القديمة وقضت عليها قبيل الإسلام .
ولم يفلت من هذا المصير إلا بعض مناطق متطرفة نائية ساعد انعزالها
وانزواؤها على نجاتها ، فظلت محتفظة بلهجتها القديمة حتى العصر الحاضر .
ثم اقتحمت العربية على الآرامية معاقلمها في الشرق والغرب وانتزعتها منها
معقلامعقلا حتى تم لها القضاء عليها حوالي القرن الثامن الميلادي . ولم يفلت من
هذا المصير إلا بعض مناطق جبلية منعزلة لا تزال تتكلم اللهجة الآرامية إلى
العصر الحاضر ^(١) . وامتد أثر العربية إلى الأمم الآرية والطورانية التي
اعتنقت الدين الإسلامي (الفرس ، الهنود ، الأتراك . . . الخ) فاحتلت
لديها مكانة مقدسة سامية ، وتركت آثارا عميقة في كثير من لغاتها ، فانسعت
بذلك مناطق نفوذها حتى بلغ عدد الناطقين بها والمتأثرين بسلطانها نحو
أربعمائة مليون من سكان المعمورة ^(٢) .

— ٤ —

الفصيلة الثالثة : اللغات الطورانية

Langues Touraniennes

أطلق مكس مولر وبونسن Bunsen ^(٣) اسم « اللغات الطورانية »

- (١) انظر تفصيل هذه الموضوعات جميعها في كتابنا « فقه اللغة » .
- (٢) يبلغ عدد المسلمين في العالم حسب أحدث احصاء ٤٠٠ مليون وتبلغ نسبتهم
إلى مجموع سكان العالم البالغ عددهم ٢١٧٠ مليونا ١٨.٥ ٪ . ومنهم بأفريقيا
٦٨ مليونا (٤.٠ ٪ من مجموع سكانها) وفي آسيا ٣١٨ مليونا (٢٧.٠ ٪ من
مجموع سكانها) وفي أوروبا ١١ مليونا (٢.٠ ٪ من مجموع سكانها) وفي الأمريكتين
جاليات إسلامية لا يزيد عددها على ثلاثة ملايين (واحد وكسور في المائة من مجموع
سكانها البالغ ٢٧٢ مليونا) .
- (٣) انظر التعليق الأول بصفحة ٥١ .

على طائفة من اللغات الآسيوية والأوروبية التي لا تدخل تحت فصيلة من الفصيلتين السابقتين ، كالتركية والتركانية والمغولية والمنشورية والفينية وهلم جرا ؛ وتابعهما في ذلك كثير ممن جاء بعدهما .

فاللغات الطورانية ليست إذن فصيلة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، أى مجموعة ترجع إلى أصول واحدة ويجمع بين أفرادها صلات تشابه وقرابة ، بل هى أمشاج من لغات لا يؤلف بينها إلا صفة سلبية وهى عدم دخولها في إحدى الفصيلتين السابقتين . — هذا إلى أن القائلين بها لم يدخلوا تحتها جميع اللغات الإنسانية الخارجة عن الفصيلتين المذكورتين ، بل قصروها على طائفة منها وهى بعض اللغات الآسيوية والأوروبية .

فهذا قسم غير قائم على أساس وغير شامل لما بقى من لغات العالم . ولذلك عدل المحدثون من علماء اللغة عن استعمال كلمة « اللغات الطورانية » ^(١) ؛ وعمدوا إلى ما بقى من اللغات الإنسانية خارجا عن الفصيلتين السابقتين فقسموه إلى فصائل يجمع أفراد كل فصيلة منها صلات تشابه وقرابة لغوية ، فتتفق في أصول الكلمات وقواعد البنية وتركيب الجمل ، ويتكون من الأمم الناطقة بها مجموعة إنسانية متميزة ترجع إلى أصول شعبية واحدة أو متقاربة ويؤلف بينها طائفة من الروابط الجغرافية والتاريخية والاجتماعية .

وأحدث نظرية بهذا الصدد هى ما ذهب إليها « جمعية علم اللغة بباريس Société de Linguistique de Paris » فى موسوعتها « لغات العالم Les Langues du Monde » ، إذ قسمت ، على الأسس السابق

(١) ذهب هذا المذهب من القدامى أنفسهم العلامة رينان . فعلى الرغم من موافقته مكس مولر (الذى كان معاصرا له) فى كثير من آرائه ، فإنه قد رفض الأخذ بنظريته بصدد اللغات الطورانية ، ووجه إليها نقدا لاذعا فى كتابه أصول اللغة .

ذكرها ، جميع اللغات الانسانية الخارجة عن الفصيلتين الحامية — السامية
والهندية الأوروية إلى تسع عشرة فصيلة ، وهى :

١ — فصيلة اللغات اليابانية .

٢ — « فصيلة اللغات الكورية Coréen » (لغات سكان شبه
جزيرة كوريا التى كانت تابعة لليابان والواقعة بين بحر اليابان والبحر الأصفر) .

٣ — لغة الأينو La Langue Aïnou . — ويتكلم بها الآن نحو
عشرين ألفا من سكان جزيرة هوكادو Hokkado وجزيرة ساكها لين
Sakhaline وجزيرة شيكوتو Shikotau (وكلها كانت تابعة لليابان) .
ولم تثبت صلة قرابة بين هذه اللغة وأية لغة من اللغات الحية ولذلك
عدت فصيلة على حدها .

٤ — « فصيلة اللغات الصينية — التبتية » ، وتشمل اللغات الصينية
الأصلية ولهجاتها والتبتية Tibétain ، والبرمانية irman ، والسيامية
Siamois (لغة سيام) .

٥ — « فصيلة اللغات الأسترالية الإسيوية » (التى يتكلم بها القسم
الإسيوى الجنوبى المنحدر إلى أستراليا) ، وتطلق على ثلاث شعب : شعبة
اللغات الأنامية (لغة سكان أنام من الهند الصينية) ؛ وشعبه اللغات
الموندية Langues Mounda أو الكولارية Kolaris (من أقدم لغات
الهند ، بل من أقدم اللغات الإنسانية جميعها ، ويتكلم بها الآن نحو مليوني
نسمة من الهنود ، ومنطقتها فى الجزء الجنوبى من الهند) ؛ وشعبه اللغات

المونكميرية Les Langues Mon-Khmer (ويدخل فيها المنية Le mon والكهرية Khmer أو السكميدجية Cambodgien والتشامية Tcham . ويتكلم بهذه اللهجات بمنطقة أسام Assam وما إليها) .

٦ — فصيلة اللغات الدرافيدية Dravidienne (لغات بعض الشعوب التي تقطن جنوب بلاد الهند قبل أن يهاجر إليها الآريون . وتشمل التامولية Tamoul والكانارية Kanarais وغيرهما) .

٨،٧ — اللغات القوقازية (ولا يطلق هذا الاسم في اصطلاح علماء اللغة على جميع اللغات القوقازية ، بل على مجموعة خاصة منها ، وهي اللغات القوقازية ، التي ليست سامية ، ولا هندية — أوروبية ، ولا أورالية — ألتائية) ، وتشمل فصيلتين لم تثبت بعد صلات القرابة بينهما بشكل قاطع ^(١) ، ولذلك عددناهما فصيلتين لفصيلة واحدة ، وهما : « فصيلة اللغات القوقازية الشمالية » وتشمل السامورية Samourien والأرتسية Artsi والأديغية Adeghe ... (وغيرها) ؛ و « فصيلة اللغات القوقازية الوسطى » (وتشمل الجيورجية Géorgien واللازية Laze ... وغيرهما) .

٩ — « فصيلة اللغات الآسيوية القديمة » Langues propres de l'Asie antérieure ancienne . — يطلق هذا الاسم في عرف علماء اللغة على بعض لغات آسيوية قديمة غير سامية ولا هندية — أوروبية ، كان يتكلم ببعضها في مملكة ميزوبوتاميا Mésopotamie (مملكة قديمة كانت تقع بين دجلة والفرات)

وبعضها في آسيا الصغرى وفي المناطق المتصلة بها من حوض البحر الأبيض المتوسط وفي بعض أجزاء من إيطاليا^(١).

ومن أهم لغات هذه الفصيلة اللغة السومرية Sumérien وهي لغة غير سامية ولاهندية — أوروبية ، كان يتكلم بها شعب مجهول الأصل كان يسكن حوض الفرات الأدنى بقرب خليج فارس ، أى في المنطقة التي احتلتها فيما بعد الشعوب السامية الآشورية والبابلية ونشرت فيها لغاتها الأكادية (شعبة من اللغات السامية ، وتسمى كذلك شعبة اللغات الآشورية — البابلية^(٢)).

ويرجع الفضل في الوقوف على اللغة السومرية إلى ما عثر عليه أخيراً من آثارها مكتوباً بالخط المسماري . وتتألف هذه الآثار من وثائق هامة بعضها أدبي — لغوي (شعر . قواعد . بحوث لغوية .. الخ) ، وبعضها علمي (فلك طبيعية ... الخ) ، وبعضها اجتماعي — تاريخي (يعرض للشئون الاقتصادية والقضائية والسياسية والإدارية والدينية والأسطورية والتاريخية .. وهلم جرا).

١٠ — فصيلة اللغات التركية والمغولية والمنشورية .

١١ — فصيلة اللغات الفينية Finois والأجرية Ougriennes

والسامويدية Samoyédes (ويتكلم بهذه اللغات في الحوض الأوسط لنهر

(١) انتقلت هذه اللهجات إلى إيطاليا على إثر هجرة بعض الشعوب إليها من آسيا الصغرى . — وأشهر اللغات الإيطالية القديمة التي تعد من هذه الفصيلة هي اللغة الأتروسكية Etrusque التي كان يتكلم بها الاتروسكيون Etrusques أو الرازينيون Rasennes (وهم سكان المنطقة المسماة قديماً إتروريا Etrurie) .

(٢) انظر صفحة ٥٦ ، وانظر تفصيل الكلام في اللغتين الأكادية والسومرية بالفصل الأول من كتابنا « فقه اللغة » .

الفولجا (Volga) . — ويدخل في الفينية اللغات الفنلندية والأستونية والبلغارية القديمة^(١) وغيرها . — ويدخل في الأجرية اللغات اللانونية Lapons (لاتزال لهذه اللغات بقايا في السويد والنرويج وغيرها) واللغات الهنغارية... وغيرها . — وتنشعب السامويدية إلى الأستياكية Ostiak واليوراكية Yowak والتاجوية Tavgui وغيرها .

هذا ، وقد كان القدامى من علماء اللغة يجمعون معظم أفراد الفصيلتين العاشرة والحادية عشرة تحت فصيلة واحدة كانوا يسمونها الأورالية — الألتائية Ouralo - Altaïque أو الطورانية . — ولكن ظهر للمحدثين فساد هذا المذهب ، وتبين لهم أن كلتا المجموعتين مستقلة عن الأخرى .

١٢ — لغة الباسك Basque أو الأسكارا Euskara . ويتكلم بها الباسكيون ، وهو شعب يقطن منطقة جبال البرانس الغربية في العدوتين الإسبانية والفرنسية بمناطق بيسكاي Biscaye وألافا Alava وجوييوزكوا Guipuzcoa ونافار Navare (بإسبانيا) ، وبمناطق بيون Bayonne وموليون Mauléon بفرنسا .

ويدل الإحصاء الذي عمله الأستاذ لويس — لوشيان بونابرت Louis - Lucien Bonaparte عام ١٨٧٣ أن عدد المتكلمين بهذه اللغة يبلغ نحو ٦٦٠ ألفاً في أسبانيا ونحو ١٤٠ ألفاً في فرنسا . — ولكن ليس من شك في أن منطقة اللغة الباسكية ، وبخاصة منطقتها الإسبانية ، كانت قديماً أوسع كثيراً مما يرشد إليه هذا الإحصاء ؛ وقد ضاقت الآن عما كانت عليه

(١) قد انقرضت هذه اللغة وحل محلها لسان صقلي انظر كتابنا «علم اللغة» .

عام ١٨٧٣ لتغلب اللغتين الفرنسية والإسبانية على بعض أجزائها ، وخاصة في إقليم نافار Navare . هذا ، وقد هاجر إلى أمريكا عقب كشفها بعض أسرار من الباسكيين فانتشرت لغتهم في المناطق التي حلوا بها . ولا ينفك يتكلم بها الآن بضعة آلاف من أعقابهم ، وتصدر بها بعض صحفهم ومجلاتهم .

١٣ — اللغات الهيميريورية Hyperboréennes أو لغات أقصى الشمال ، وهي لغات سيبيريا وما إليها من أقاليم المنطقة المتجمدة الشمالية . — وتشمل هذه الفصيلة اللغة اليوكاجيرية Youkagir التي يتكلم بها في القسم الغربي من هذه المنطقة ؛ والتشوكتشية Tchouktch التي يتكلم بها نحو عشرة آلاف يقطنون سيبيريا شمالي نهر أنادير Anadyre ؛ والكوريائية Koryak التي يتكلم بها في المنطقة المحصورة بين نهر أنادير وشبه جزيرة كمتشاتكا Kamtchatka ؛ والكمتشادالية Kamtchadal التي يتكلم بها نحو ألفين يقطنون شبه جزيرة كمتشاتكا وجزر كوريل Kouriles ؛ والجلييائية Guiliak التي يتكلم بها في شمال جزيرة ساكها لين Sakhaline وفي الحوض الأدنى لنهر أمور Amour .

١٤ — اللغات الملايوية - البولينيزية Malayo-Polynésiennes . ويتكلم بهذه الفصيلة في طائفة كبيرة من جزر المحيطين الهندي والهادي تبدأ شرقا بجزر مدغشقر (٤٠ درجة طول شرقي باريس) وتنتهي غربا بجزيرة باك Paques (١١٠ درجة طول غربي باريس) ، وتمتد من درجة عرض ٥٠ جنوب خط الاستواء إلى درجة عرض ٣٠ شماليه . فنطقة هذه الفصيلة تشغل نحو ٢١٠ درجات طول وثمانين درجة عرض .

وتشمل هذه الفصيلة خمس شعب لغوية وهي :

شعبة اللغات الأندونيسية Andonésiennes ، وهي التي يتكلم بها بجزر أندونيسيا : جزر الفيليبين ، وسيليب ، وبرنيو ، وجاوة ، وسومطرة ، ومادورا ، ومدغشقر ... الخ ؛

وشعبة اللغات الميلانيزية Mélanésiennes ، وهي التي يتكلم بها في جزر ميلانيزيا (جزر سليمان ، وسانت كروز ، وتوريس ، وهابريد الجديدة ، ولويالتي ، وفيدحي .. الخ) ؛

وشعبة اللغات الميكرونيزية Micronésiennes ، وهي التي يتكلم بها في جزر ميكرونيزيا (جزر جلبرت ، ومرشال ، وكارولين ، وماريان .. الخ) ؛
وشعبة اللغات البولنيزية Polynésiennes ، وهي التي يتكلم بها في جزر بولينيزيا (جزر ساموا ، وكوك ، وتاهيتي أو جزر الشركة ، ويوموتى ، وتونجا ، ومنجاريفا ، وباك ، وزيلندا الجديدة ... الخ) ؛

وشعبة لغات الياپو Langues Papoues ، وهي اللغات التي يتكلم بها في غينيا الجديدة Nouvelle Guinée والجزر المجاورة لها .

١٥ - لغات سكان أستراليا الأصليين .

١٦ - اللغات الأمريكية . ويتكلم بها سكان أمريكا الأصليون (الهنود الحمر ومن إليهم) . - وكان يبالغ عددهم حينما كشفت أمريكا حوالى ٢٠ مليوناً (أى بنسبة ساكن واحد تقريباً فى كل كيلومتر مربع) ؛ ثم أخذ عددهم يتناقص شيئاً فشيئاً حتى هبط فى أوائل القرن العشرين إلى حوالى ١٥,٥ مليوناً (أى بنسبة ساكن واحد فى كل ٢,٥ كيلومتر مربع) ؛ منهم نحو نصف مليون فى الولايات المتحدة وجرونلاند ، ونحو ٦,٥ مليون

بأمريكا الوسطى (المكسيك ، وهوندوراس ، وكوستاريكا ، وبنما ،
ونيكاراغوا ، وجواتيمالا ، وسلفادور) ، ونحو ٨,٥ مليوناً بأمريكا الجنوبية .
وقد كان لتدخل السكان في هذه المنطقة أثر كبير في تعدد لغاتها .
فقد بلغت ، حسب إحصاء العلامة ريفيه Rivet ^(١) ، ١٢٣ شعباً : منها
٢٦ بأمريكا الشمالية و ٢٠ بأمريكا الوسطى و ٧٧ بأمريكا الجنوبية .
ومن أشهرها بأمريكا الشمالية لغات الإيروكويين Iroquois ،
والألجونكين Algonkins ، والإسكيمو Esquimaux ، والسيو Siou ؛
وبأمريكا الوسطى لغات الأموسجو Amesgo ، والكويكاتك Kuikatek ،
واللنكا Lenka ، والميا Maya ، والميسكيتو Miskito ؛ وبأمريكا الجنوبية
لغات الألاكوف Alakaluf ، والأروكان Aroukan ، والأراواك Arawak
والأتاكاما Atakama ، والكاريب Karib ، والإيتوناما Itonama .
هذا ، ولم تظهر بعد بشكل قاطع صلة قرابه لغوية أو صفة مشتركة تربط
هذه الشعب بعضها ببعض . فالفصيلة التي نحن بصدد الكلام عنها هي إلى
الفصيلة الجغرافية أدنى منها إلى الفصيلة اللغوية .

١٧ — لغات السودان وغانة ^(٢) . وهي لغات غير سامية ولا حامية
تتكلم بها جماعات كثيرة من زنج السودان وسكان غانة . وقد قسمها العلامة
موريس ديلافوس Maurice Delafosse إلى ٤٣٥ لغة ترجع إلى ست عشرة
شعبة ^(٣) : منها الشعبة النيلية النشادية Nilo-Tchadien (يتكلم بها في المنطقة

(١) V Rivet , dans : Les Langues du Monde p.p 597—713

(٢) هي الجزء الغربي من أفريقيا المحصور بين سنغاليا والكنغو جنوباً
والواقع على سواحل خليج غانة .

(٣) V.Maurice Delafosse, dans : Les Langues du Monde p.p.463—561

المحصورة بين أسوان شمالا وفاشودة جنوبا ، وتشتمل على ثلاثين لغة من أشهرها لغات النوبة ، والباريا ، والتوبو ، والميمى ، والكونا ما .. الخ) ؛ وشعبة اللغات النيلية - الأيسينية (يتكلم بها في الحوض الأوسط للنيل الأزرق وفي حوض النيل الأبيض وبحر الجبل ، وتشتمل على خمس عشرة لغة من أشهرها لغات الشيلوك ، والدنكا ، والديور ، والجاميلا ، والدوكو ... الخ) ؛ وشعبة اللغات النيلية - الاستوائية (يتكلم بها في جنوب المنطقة السابقة ، وتشتمل على ست وعشرين لغة من أشهرها لغات الباري ، واللاتوكا ، واليرى ، والكافيروندو ، والتاتورو ... الخ) ؛ وشعبة لغات كريدوفان (يتكلم بها في منطقة كريدوفان ، وتشتمل على عشر لغات منها لغات التالورى ، واللافوفا ، والتومتوم ، والكاندرما ... الخ) ؛ وشعبة اللغات النيلية - الكونغوية ؛ وشعبة اللغات البنغالية - الغانية ... وهلم جرا .

١٨ - اللغات البنطوية Langues Bantou . ويتكلم بها سكان القسم الجنوبي من أفريقيا في منطقة واسعة على شكل مثلث ينطبق رأسه على رأس الرجاء الصالح ، ويمتد ضلعه الأيمن على الساحل الشرقى لأفريقيا حتى بلاد الصومال ^(١) ، وضلعه الأيسر على الساحل الغربى حتى مدينة دوالا Douala ببلاد الكرون ^(٢) ، وتتجه قاعدته من بلاد الصومال إلى المحيط الاطلانطيقي مارة شمال أوغندا والكونغو . وكل الشعوب التي تقطن هذا المثلث تتكلم البنطوية ما عدا قبائل الهونتوت والبوشيان والنيجربين التي سيأتى ذكرها في الفصيلة التاسعة عشرة .

(١) الغاية هنا خارجة . فلغات الصومال من الشعبة الكوشيتية (لمحدى شعب الفصيلة السامية - الحامية) كما تقدم ، انظر صفحة ٥٧ .
(٢) الغاية هنا داخلية ، فلغة دوالا من أهم لغات هذه الفصيلة .

وتشتمل هذه الفصيلة على لغات كثيرة من أشهرها لغات السوثو Sotho ، والسواحلي Swahili ، والدوالا Douala ، والجنذا Ganda ، والجالوا Galoa والتونجا Tonga .

هذا ، وقد كان العرب على اتصال بأهل زنجبار منذ عصور سحيقة ولذلك عنوا بدراسة لغتهم (المسماة السواحلية Swahili) ودونوها بحروف عربية . وعن طريقهم وصلنا كثير من تفاصيل هذه اللهجة . أما اللغات الأخرى من هذه الفصيلة فقد عني بدراستها كثير من أعضاء الإرساليات الدينية في هذه المنطقة ، ودونوها بحروف لاتينية مع بعض علامات لتمييز الأصوات الخاصة بها .

١٩ — لغات البوشيان والهوتنتوت والنيجريين Boschimans, Hottentotes, Négrilles وهي من القبائل الأفريقية الجنوبية : تقطن أولاها الغابات الاستوائية والمناطق الصحراوية ، ولا يتجاوز عدد أفرادها الآن خمسين ألفا ، وتقطن ثانيها منطقة محصورة بين خط عرض ٢٤ جنوب خط الاستواء والحوض الأدنى لنهر الأوراج وبعض أجزاء من مستعمرة الكاب ، ولا يتجاوز عدد أفرادها الآن ربع مليون يتألف معظمهم من عشائر الناما Nama^(١) ، وتتألف ثالثها من أقزام يقطنون الغابات الاستوائية .

(١) كانت عشائر الهوتنتوت تقطن قديما منطقة واسعة جنوب نهر زمبيزي ، ثم أخذت هذه المنطقة تضيق شيئا فشيئا تحت تأثير غارات البنطويين من الشمال والأوروبيين من الجنوب حتى انحصرت في الحدود التي وصفناها .

هذا ، ولما كانت هذه الفصائل ممثلة للقسم البدائي أو الذي وقف
نموه من لغات بني الإنسان ، فأهميتها النسبية أقل كثيراً من أهمية
الفصيلتين السابقتين (الهندية — الأوروبية ؛ والحامية — السامية) ؛
ولما كان المقام ، من جهة أخرى ، لا يتسع في عمالة كهذه للكلام عنها وعن
خصائص كل منها ^(١) ؛ ولأن الباحثين ، من جهة ثالثة ، لم يصلوا بعد في
دراسة معظمها إلى نتائج ذات بال ؛ لهذا كله آثرنا أن نقتصر على ما سبق
ذكره بصدد هذا ، ونقف الجزء الباقي من هذا الباب على تكملة البحث في
الفصيلتين الهندية — الأوروبية والحامية — السامية .

(١) حاولت جمعية علم اللغة بباريس Société du Linguistique Pe Paris
تحت إشراف الأستاذين مييه Meillet ومارسل كوهين Marcel Cohen أن تعرض
في كتابها « لغات العالم Les Langues du Monde » بحثاً موجزاً في هذه الفصائل
التسع عشرة فاستغرق بحثها هذا نحو ستمائة صفحة من القطع الكبير (من ١٥٣ — ٧١٣) .
وقد اشترك في تحريره طائفة من أئمة الاختصاصيين في هذه اللغات .

الفصل السابع

بعض ما تختلف فيه الفصيلتان

السامية والهندية — الأوروبية

تتماز كل من هاتين الفصيلتين عن الأخرى بخواص كثيرة من أهمها ما يلي (١) :

١ — تتألف أصول الكلمات في اللغات السامية في الغالب من ثلاثة أصوات ساكنة (أحرف ساكنة) (٢) مختلفة . ففي اللغة العربية مثلاً ترجع جميع الكلمات التي فيها معنى القتل إلى أصل ثلاثي مؤلف من ثلاثة أصوات ساكنة هي ق ت ل . ولا يشذ عن هذه القاعدة إلا بعض الحروف

(١) وفف العلماء على هذا الموضوع مجلدات ضخمة ، من أحسنها وأقرأها مأخذاً في اللغات الهندية — الأوروبية كتاب الاستاذ ميه - Meillet : Introduction à l'étude comparative des Langues Indo - Européennes ويقع في نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير ؛ وفي اللغات السامية كتاب العلامة رينان Renan : Histoire générale des Langues Sémitiques ويقع كذلك في نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير . وقد عرضت جمعية علم اللغة بباريس للفصيلتين معاً في كتابها لغات العالم في نحو مائة وخمسين صفحة (١ - ١٥٣) .

(٢) الحرف هو ما يرمز إلى الصوت في الكتابة . فاستعمال كلمة أصوات في هذا معال كلمة حروف ، ونريد بالساكنة ما يقابل اللينة .

والضماير وبعض أسماء الشرط والموصول وقليل من أسماء الذوات (يد ، دم) ومن الأفعال (قال ، وعد ، ثم ، رد^(١)) .

وهذه الأصول لا توجد مستقلة في اللغات السامية . فالأصل الدال على معنى القتل في اللغة العربية مثلا وهو ق ت ل لا يوجد مستقلا في هذه اللغة ، بل لا يمكن النطق به .

والأصوات التي يتألف منها أصل ما توجد مرتبة ، حسب ترتيبها في هذا الأصل ، في جميع الكلمات المشتملة على معناه العام . فالأصوات الثلاثة ق ت ل التي يتألف منها الأصل الدال على معنى القتل ، توجد مرتبة بالشكل السابق في جميع الكلمات المشتملة على هذا المعنى : قتل ، قاتل ، قتال ، قتيل ... الخ .

واشتمال الكلمة على أصوات أصل ما لا يدل على أكثر من تضمها للمعنى العام لهذا الأصل .

أما ما عدا المعنى العام فيشار إليه بأصوات مد طويلة (ألف ، ياء ، واو ... الخ) أو قصيرة (فتحة ، كسرة ، ضمة) تلحق جميع أصوات الأصل أو بعضها . فنوع الكلمة (كونها اسما أو فعلا أو حرفا ، اسم فاعل أو اسم مفعول ، متعدية أو لازمة ، مفردة أو مثني أو جمعا ... الخ) وزمنها (حدث معناها في الماضي أو يحدث في الحال أو في الاستقبال) ووظيفتها في الجملة (كونها فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه أو حالا أو تمييزا ... الخ) ... كل ذلك وما إليه تدل عليه في اللغات السامية أصوات مد طويلة أو قصيرة

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع في مقدمة كتابنا « فقه اللغة » . هذا ، وأما الكلمات التي تبدو رباعية الأصول في العبرية والعربية فهي متفرعة في الحقيقة عن أصول ثلاثية دحرج مثلا متفرعة عن درج ، على الرغم من أن علماء الصرف يعتبرون جميع أصواتها أصلية .

تتلحق جميع أصوات الأصل أو بعضها . وأصوات المد الطويلة هي التي يرمز إليها بحروف المد الثلاثة الألف والياء والواو ، وحروف المد القصيرة هي التي يرمز إليها بالفتحة والكسرة والضممة . فبضم القاف وكسر التاء وفتح اللام في « قَتَلَ الجرم » مثلا ، تدل الكلمة على فعل قتل حدث في زمن مضى ومسند للمفعول . وبعد القاف بالألف وكسر التاء وإبقاء اللام ساكنة في « قَاتِلُ الذي يقاتلك » ، تدل الكلمة على أمر المخاطب باجراء القتل في صورة متبادلة مع غيره . و بفتح القاف ومد التاء بالياء وكسر اللام في « هذا دم القاتل » ، تدل الكلمة على شخص وقع عليه القتل ومنسوب إليه (مضاف إليه) شيء آخر . و بفتح القاف وإبقاء التاء ساكنة ومد اللام بالألف في « هؤلاء قتلى الحرب » تدل الكلمة على عدة أفراد وقع عليهم القتل .. وهلم جرا . وقد يصحب هذا أحيانا أصوات ساكنة جديدة تسبق أصوات الأصل الثلاثة أو تتخللها أو تلحقها للدلالة على معان خاصة في الكلمة . فبزيادة ميم محركة بالفتح قبل أصوات الأصل ونون ساكنة في نهاية الكلمة ، مع إبقاء القاف ساكنة وفتح التاء واللام في « أصاب مقتلا (مقتلن) » تدل الكلمة على عضو نكرة تؤدي إصابته إلى القتل وقد وقع عليه الفعل المعبر عنه في الجملة . وبزيادة ياء مفتوحة قبل أصوات الأصل وتاء مفتوحة بعد القاف ونون مفتوحة في آخر الكلمة ، مع إبقاء القاف ساكنة وكسر التاء ومد اللام بالواو في « القوم يقتلون » تدل الكلمة على فعل يحدث في الحال أو في المستقبل في صورة متبادلة بين طائفتين من الذكور آدميين .

ومما تقدم يتضح أن للأصوات الساكنة (ونعني بها ماعدا أصوات المد) في اللغات السامية أهمية تزيد كثيرا على أهمية أصوات المد . فالمعنى الأساسي للكلمة يشار إليه غالبا بالأصوات الساكنة ، أما أصوات المد فلا

تعدو وظيفتها في الغالب تحديد هذا المعنى العام وتوجيهه وجهات خاصة . هذا إلى أن الأصوات الساكنة تنال في اللغات السامية أكبر قسط من عناية المتكلم ، وهى لذلك أوضح في الجرس من أصوات المد وأظهر منها في السمع . وقد سرت أهمية الأصوات الساكنة في الدلالة والنطق إلى الرسم نفسه . فاهم ما يعنى الرسم السامى بإظهاره هى الأصوات الساكنة ، أما أصوات المد فيغفل بعضها إغفالا تاما ، ويشير إلى بعضها بالشكل ويرسم بعضها رسما مضطربا غير دقيق . وهذا فى الرسم الحديث . أما الأشكال القديمة للرسم السامى فكانت تغفل جميع أصوات المد .

* * *

أما اللغات الهندية — الأوروبية فتختلف عن اللغات السامية — الحامية فيما يتعلق بأصول الكلمات من أربعة وجوه : أحدها أن أصول الكلمات الهندية - الأوروبية ليست متحدة فى عدد أصواتها كما هو شأن الأصول السامية بل تختلف فى ذلك اختلافاً كبيراً ، فمنها الثنائى ومنها الثلاثى ومنها الرباعى .. وهلم جرا . وثانيها أن أصول الكلمات الهندية — الأوروبية ليست مؤلفة من أصوات ساكنة فحسب كما هو شأن الأصول السامية ، بل تختلط فيها الأصوات الساكنة باللينة . وثالثها أن أهمية الأصوات الساكنة لا تزيد فى اللغات الهندية - الأوروبية عن أهمية الأصوات اللينة لافى الدلالة ولا فى النطق ولا فى الرسم كما هو الشأن فى اللغات السامية . ورابعها أن الأصل الدال على المعنى العام للكلمة هو نفسه بمنزلة كلمة مستقلة يمكن فصلها والنطق بها على حدة ^(١) . وقد يتحقق أحيانا هذا الفصل فى الواقع فيبقى الأصل فى الكلمة مجردا من كل عنصر آخر ^(٢) . — على أنه فى حكم

V. Renan: Langues Sémitiques 455 et suiv. Meillet. Introduction (١)

...etc 115—122

Meillet, op. cit. 120 (٢)

الثابت أن جميع أصول الكلمات الهندية — الأوروبية كانت في عصورها الأولى — إذ كانت اللغة غير متصرفة^(١) — تستخدم وحدها عارية من كل زيادة^(٢).

ويشير الأصل في الكلمة الهندية — الأوروبية إلى معناها العام .
أما ما عدا ذلك ، فيشار إليه بالعلامات الآتية^(٣) :

١ — أصوات تلحق الأصل فتدل على نوع الكلمة (كونها اسما أو فعلا أو حرفا اسم فاعل أو مفعول ... الخ) وتسمى هذه الأصوات « باللاحقة » Suffixe . وأصل الكلمة مع لاحقتها يسميان مادة الكلمة

Thème

وقد يتصل بالأصل أكثر من لاحقة واحدة للدلالة على عدة معان في الكلمة من هذا القبيل . وقد تعرفوا الكلمة من اللواحق ، ولكن تجردها منها يشير هو نفسه إلى معنى خاص فيها .

ب — أصوات تأتي عقب اللاحقة فتختتم بها الكلمة لتعيين وظيفتها في الجملة (كونها فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه ... الخ) وزمنها (ماضيا أو مضارعا ... الخ) ونوع إسنادها (كونها مسندة إلى المتكلم أو المخاطب أو الغائب ... الخ) ودلالاتها على مذكر أو مؤنث ، مفرد أو مثنى أو جمع .. وهلم جرا . وتسمى هذه الأصوات بالختامة Désinence^(٤)

(١) انظر معنى هذه الكلمة بصفتي ٤٧، ٤٨ .

(٢) Meillet, op.cit. 119, 120

(٣) أنظر في هذه العلامات وما يتصل بها Meillet op.cit, 115-122

(٤) ليست كلمة « الخاتمة » بترجمة لكلمة Désinence ، بل هي كلمة من

اصطلاحنا لتسهيل التسمية .

ولا يلحق الأصل أكثر من خاتمة واحدة . وقد تتجرد الكلمة من «الخواتم» ، ولكن تجردها يشير هو نفسه إلى معنى خاص فيها . فتجرد الفعل مثلا من الخاتمة يدل ، في بعض اللغات الهندية - الأوروبية (ومنها الانجليزية والفرنسية) على أمر مسند للمفرد المخاطب Aime Love . وقد تتجرد الكلمة من اللاحقة والخاتمة فيبقى الأصل عاريا من كل زيادة . ولكن تجرده هذا يدل هو نفسه على معنى خاص به .

ح - أصوات تسبق الأصل فتلصق بالكلمة في مبدئها للدلالة على معان من نوع المعاني التي تدل عليها الأصوات اللاحقة السابق ذكرها . وتسمى هذه الأصوات «بالسابقة» Préfixe .

و - أصوات لين طويلة أو قصيرة a, e, é, è, ê, i, o, ô, y, oi, etc... ، تلحق جميع أصوات الأصل أو بعضها على نحو ما تقدم شرحه في اللغات السامية .

ه - شكل النطق يختلف أجزاء الكلمة . ففي بعض اللغات الهندية - الأوروبية يتغير معنى الكلمة بتغير طريقة النطق بأجزائها . ففي الإنجليزية مثلا تتردد بعض الكلمات بين الاسمية والفعلية تبعا لطريقة النطق بها : فإذا ضغط في النطق على جزئها الأول كانت اسما ، وإذا ضغط على جزئها الأخير كانت فعلا :

The object of our book is ; I object against this theory

و - موقع الكلمة في الجملة . ففي بعض اللغات الهندية - الأوروبية لا يتميز الفاعل من المفعول إلا بتقديمه في الجملة Pierre bat Paul

وتختلف اللغات الهندية - الأوروبية في مبلغ استخدامها لهذه العلامات

الست . فمن اللغات الهندية - الأوروبية ما يستخدم جميع هذه العلامات ، ومنها ما لا يستخدم إلا بعضها ، ومنها ما يستخدم بعضها بكثرة ولا يلجأ لبعضها الآخر إلا نادراً . وإليك مثلاً العلامات التي سميناها « السابقة » (رقم ٢) ؛ فهي لا توجد في كثير من اللغات الهندية - الأوروبية القديمة ؛ على حين أنها تسكثر في الحديثة منها كالإنجليزية والفرنسية وما إليهما (Understand, Comprendre...) .

* * *

٢ - لا تكاد توجد في اللغات السامية كلمات تشتمل على أكثر من أصل واحد ؛ على حين أن هذا النوع يكثر في اللغات الهندية - الأوروبية ، وبخاصة الحديث منها . وكل كلمة من هذا القبيل تدل على معنى مركب من معاني الأصول التي تشتمل عليها ^(١) .

٣ - ليس للفعل في معظم اللغات السامية إلامزمان : فعل انتهى زمنه (ماض) وفعل لم ينته زمنه (مضارع للمحال أو الاستقبال وأمر) ^(٢) ؛ على حين أن له في اللغات الهندية - الأوروبية أزمنة كثيرة لكل منها صيغة خاصة : الماضي القريب ، الماضي البعيد ، الماضي الكامل ، الماضي المتصل بالحاضر ، الحاضر ، المستقبل . الخ . وقد بلغت هذه الأزمنة في اللغة الفرنسية أحد عشر في الجمل

(١) توجد هذه الظاهرة في اللغات السامية في بعض كلمات قليلة معظمها حديث النشأة ، ومن ذلك ما يسمونه بالكلمات المنحوتة : تـلـاشـى (أصبح لا شيء) حمدل (قال الحمد لله) بـسـمـل (قال بسم الله) طـلـق (قال أطال الله بقاءك) ... الخ . — انظر تفصيل هذا الموضوع بكتابنا « فقه اللغة » صفحة ١٤٩ وتوابعها (الطبعة الثانية) .

(٢) يستثنى من ذلك اللغات الأكادية فإن لفعل فيها ثلاثة أزمنة أصيلة : زمانان يشار إليهما بأصوات تملحق أول الفعل ، وهما الزمن الماضي التام والزمن المضارع للاستقبال ، وزمن ثالث يشار إليه بملحق في آخر العقل وهو الزمن المعبر عن الاستمرار (انظر ص ٢٣ من كتابنا « فقه اللغة » . الطبعة الثانية) .

الإخبارية وحدها) (Indicaf) : Je parle ; je parlais ; je parlai ; j'ai parlé ;
J'eu parlé ; j'avais parlé ; j'ai eu parlé ; j'avais eu parlé ; je
parlerai ; j'aurai parlé ; j'aurais eu parlé.

٤ - يحدث في الغالب تأنيث الاسم والصفة في اللغات السامية
والحامية بإضافة تاء إلى المذكر . أما في اللغات الهندية - الأوروبية
فللتأنيث طرق أخرى كثيرة : منها تضعيف الحرف الأخير للمذكر
(chat, te ; gras, se) ؛ ومنها استبدال حرف آخر به (loup, ve ; neuf, ev)
ومنها استبدال عدد من الأحرف الأخيرة في المؤنث بعدد من الأحرف
الأخيرة في المذكر instituteur, trice ; peucheur, chresse ، ومنها مد
الحرف الأخير في المذكر (berger, ère ; fermier, ière) ، ومنها زيادة
بعض حروف على المذكر (tigre, resse ; comte, tesse) .

٥ - يميل الأسلوب كثيراً في اللغات السامية - وبخاصة الأسلوب
الأدبي - إلى استخدام الكلمات والعبارات في غير ما وضعت له عن طريق
الاستعارة والمجاز المرسل والكناية وما إلى ذلك . أما أساليب اللغات
الهندية - الأوروبية فيبدو فيها الحرص على استخدام الكلمات في معناها
الأصلية .

* * *

هذا ، وقد اعتمدنا في التفرقة بين هاتين الفصيلتين على أمور تتمصل
بالقواعد لا بالمفردات .

وذلك لأن ناحية القواعد هي أهم ما يمتاز به الفصائل بعضها عن بعض .
فمنها تتكون شخصية اللغات وإليها ترجع مقوماتها . وهي التي تمثل المظهر
الثابت المستقر في اللغات : فهي لا تكاد تتغير ، وما يحدث فيها أحياناً من

تغير يجرى دائماً ببطء وفي نطاق ضيق . وهى ، إلى هذا كله ، لا تنتقل بطريق الاقتباس أو غيره من لغة إلى أخرى^(١) . فتشابه لغتين فى القواعد يدل إذن على انتمائهما إلى فصيلة واحدة ؛ واختلافهما فيها يدل على اختلاف فصيلتهما .

على حين أن المفردات تمثل المظهر المتقلب والناحية المتنقلة فى اللغات . فهى محاطة بعوامل كثيرة تحول دون ثباتها وتجعلها عرضة للتغير المطرد والتطور السريع ، وتذلل لها وسائل الانتقال من لغة إلى لغة . فتشابه لغتين فى مفرداتهما لا يدل على انتمائهما إلى فصيلة واحدة . فقد تكونان من فصيلتين مختلفتين ويكون السبب فى هذا التشابه راجعاً إلى أن إحداهما قد اقتبست مفرداتها عن الأخرى . واختلاف لغتين فى مفرداتهما لا يدل على اختلاف فصيلتهما . فقد تكونان من فصيلة واحدة ويكون السبب فى هذا الاختلاف راجعاً إلى أن مفردات كل منهما قد سلكت فى تطورها طريقاً يختلف عن الطريق الذى سلكته مفردات الأخرى لاختلافهما فى المؤثرات المحيطة بهما ، أو أن إحداهما قد اقتبست مفرداتها من لغة ثالثة لا تربطها بها لحة قرابة فبعدت فى هذه الناحية عن فصيلتهما .

فاللغة السريانية مثلاً تعد من فصيلة اللغات السامية ، مع أن قسماً كبيراً من مفرداتها يتحد مع مفردات اللغة الإغريقية التى تعد من أفراد الهندية - الأوروبية . وذلك لأن قواعد الأولى قواعد سامية ، وقواعد الثانية هندية - أوروبية . وتشابههما فى المفردات نشأ عن مجرد اقتباس الأولى عن

(١) عرضنا لهذا الموضوع بتفصيل فى فصل صراع اللغات من كتابنا « علم اللغة » وذكرنا أن القواعد إذا انتقلت من لغة إلى أخرى كان انتقالها إيداناً نزوال اللغة التى انتقلت إليها واندماجها فى اللغة التى انتقلت منها ، وأن هذا يحدث حينما تشترك لغتان فى صراع ويكتب لإحداهما النصر (أنظر على الأخص صفحة ١٤٣ من كتابنا « علم اللغة » الطبعة الثانية) .

الثانية لما كان يعوزها من كلمات . — واللغة التركية تتفق في قسم كبير من مفرداتها مع الفارسية والعربية ؛ مع أن كل لغة من هذه اللغات الثلاث تعد من فصيلة خاصة . فالتركية من الفصيلة التتارية ، والفارسية من الهندية — الأوربية ، والعربية من السامية . وذلك لاحتفاظ كل منها بقواعد فصيلتها . أما تشابهها في المفردات فقد نشأ عن مجرد انتقال طائفة من كلمات اللغتين الثانية والثالثة إلى اللغة الأولى عن طريق الاقتباس . وعلى هذا الأساس عدت الفارسية الحديثة من فصيلة اللغات الهندية — الأوربية على الرغم من اتفاقها في كثير من المفردات مع اللغة العربية التي تعد من فصيلة اللغات السامية .

من شئون طبيعة واجتماعية ، قد اهتمت في كتابي هذا ببيان
Klaproth, Gopp, Humboldt, Ewald, Benke, Lassen, Pott, Kell,
Bunsen, Lepsius, Furst, Delisch.

من شئون طبيعة واجتماعية ، قد اهتمت في كتابي هذا ببيان
Klaproth, Gopp, Humboldt, Ewald, Benke, Lassen, Pott, Kell,
Bunsen, Lepsius, Furst, Delisch.

الفصل الثامن

وجوه الشبه بين الفصيلتين

السامية والهندية - الأوروبية

ترى طائفة من العلماء أن هاتين الفصيلتين ، مع اختلافهما في القواعد ، تتفقان في كثير من أصول الكلمات . ومن أشهر أفراد هذه الطائفة الأساندة كلاپروث وبوب وهمبلت وإوالد وبنفى ولاسن وبوت وكيمل وبونسن وليبسيوس وفورست وديليتزش^(١)

Klaproth, Bopp, Humboldt, Ewald, Benfy, Lasson, Pott, Keil, Bunsen, Lepsius, Fürst, Delitzsch.

وقد أوغل كثيراً في هذه السبيل الأستاذان فورست وديليتزش ، فلم يغادرا أصلاً من أصول الفصيلة السامية إلا كشفا عما يشبهه صوتاً ودلالة من أصول الفصيلة الهندية ... الأوروبية .

أما تعليل هذه الظاهرة فقد انقسم هؤلاء العلماء بصدده إلى ثلاث فرق : ففريق يعلاها بأن إحدى الفصيلتين قد انشعبت عن الأخرى وظلت محتفظة بأصول مفرداتها ؛ ولسكنها سلكت في تكوين قواعدها وجهة تختلف عن وجهة أصلها ، فأخذت تبعد عنه في هذه الناحية شيئاً فشيئاً حتى وصل

(١) من بين هؤلاء من كشف عن وجوه الشبه بين جميع أفراد الفصيلة الأولى وجميع أفراد الفصيلة الثانية ؛ ومنهم من كشف عن وجوه الشبه بين بعض لغات الفصيلة الأولى وبعض لغات الفصيلة الثانية ، كالعلامة ليبسيوس الذي كشف عما تتفق فيه أصول الكلمات السنسكريتية مع أصول الكلمات العبرية .

الخلاف بينهما إلى الحد الذي هما عليه الآن . وفريق يذهب إلى أنهما قد تفرعتا عن لغة دثرت ولم يصلنا شيء من آثارها ، وأن هذه اللغة كانت متصرفة ^(١) ذات قواعد كاملة التكوين ، وأن قواعد كل فصيلة منهما قد سلكت في تطورها طريقا يختلف عن طريق الأخرى ، ولكن كليهما ظلت محتفظة بأصول مفردات اللغة التي أنشعبتا عنها . وفريق ثا يرثى أن الشعب الذي تفرع عنه الساميون والآريون كان له في الأصل لغة مشتركة ، وأن انقسامه إلى هاتين الشعبتين قد حدث ولغته في الدور الأول من أدوار تكوينها ، إذ لم تكن قد تجاوزت بعد مرحلة اللغات العازلة ^(٢) العارية من القواعد ، وأن كل شعبة منهما ، تحت تأثير عقليتها الخاصة وما كان يكتنفها من شئون طبيعية واجتماعية ، قد اتجهت في تكلمة لغتها وتكوين قواعد هامنها يختلف عن المنحى الذي اتجهت إليه الشعبة الأخرى ، ولكن بقى في مفردات كليهما كثير من آثار الأصل المشترك .

غير أن أساس النظرية نفسه ، وهو اتفاق الفصيلتين في أصول المفردات اتفاقا يدل على انشعاب إحداها عن الأخرى أو انشعابهما عن أصل واحد قريب غير مسلم به من جمهرة المحققين من علماء اللغة . وذلك لأن القائلين بهذه النظرية لم يقدموا على صحتها دليلا يعتدي به . فليس من بين وجوه الشبه التي كشفوا عنها بين هاتين الفصيلتين ما ينهض دليلا قاطعا على صحة نظريتهم ؛ بل إن كثيرا منها لينم على ضعفها وبطلانها . فمن ذلك مثلا ما اعتمد عليه بهذا الصدد الألمان فورست وديليترش . فقد ذهبا إلى أن أصول الكلمات السامية كانت قديما مؤلفة من حرفين اثنين

(١) انظر معنى هذه الكلمة بصفحة ٤٥ وأول ٤٦ .

(٢) انظر معنى هذه الكلمة بصفحة ٤٧ .

ثم زيد فيما بعد على كل أصل منها حرف ثالث^(١). وعلى أساس هذا المذهب —
الذي لا يؤيده أى دليل قاطع بل قامت أدلة قوية على بطلانه — تحايلا على
التقريب بين الأصول السامية والأصول الهندية — الأوروبية . فاختارا السكل
أصل سامى كلمة هندية — أوروبية تقرب منه فى أصواتها ودلالاتها . وقررا
تفرعها عن أصل واحد . ولإثبات ذلك يختاران حرفين تشتركا فيهما
الكلمتان ، ويقرران أن الأصل السامى كان يتألف قديما من هذين الحرفين
وحدهما ثم زيد عليهما فيما بعد حرف ثالث ، وأن هذا الأصل الثنائى نفسه
هو الذى جاءت منه الكلمة الهندية — الأوروبية . ولا يخفى ما فى هذه
الطريقة الاستدلالية من تحكم وتخمين ومخافة للروح العلمى ومناهج البحث
الصحيح^(٢) . — ومن ذلك أيضا ما ذهب إليه ديليتزش بصدد التشابه بين
طائفة من مفردات اللغة العبرية من جهة وطائفة من مفردات اللغتين
الإغريقية واللاتينية من جهة أخرى . فقد اتخذ من هذا التشابه دليلا على
صحة النظرية التى نحن بصدد مناقشتها ، غافلا عن أن العبرية الحديثة قد
اقتبست كثيرا من مفردات الإغريقية واللاتينية . ومن الغريب أن
الكلمات التى ذكرها للاس — تدلال على مذهبه هى ذاتها من أشهر
ما اقتبسته العبرية الحديثة من هاتين اللغتين . — وآخرون من المؤيدين
لهذه النظرية يعتمدون فى إثبات التشابه بين مفردات الفصيلتين السامية
والهندية — الأوروبية على كلمات تكاد تتفق فى جميع اللغات لانهدارها
من الأصل الأول الذى نشأت منه اللغة الإنسانية ، وهى أصوات الحيوان
ومظاهر الطبيعة ، والأصوات التى تحـدثها الأفعال ، وأصوات

(١) وقد قال بهذا من قبلهما الأستاذ جيزينيوس Gesenius — انظر فيما
يتعلق بأصول الكلمات السامية وأصول الكلمات الهندية — الأوروبية صفحات ٧٢ — ٧٨
(٢) انظر فى الرد على هذه النظرية Reman : Langues sémitiques. 448 et suiv

التعبير الطبيعي عن الانفعالات ... وما إلى ذلك . وغنى عن البيان أن كلمات
هذا شأنها لا تدل على ما يذهب إليه أصحاب هذه النظرية من انشعاب
إحدى الفصيلتين عن الأخرى أو انشعابهما عن أصل قريب . — وبعض
المؤيدين لهذه النظرية يعتمد في إثبات القرابة بين الفصيلتين على وجوه
شبه بعيدة بين مفرداتهما أو على تقارب جاء عن طريق الصدفة والاتفاق . —
وقصارى القول : لا نكاد نجد من بين الأدلة التي اعتمد عليها أصحاب هذه
النظرية ما يستحق المناقشة ، فضلا عن أن ينهض حجة قاطعة على صحتها .

الفصل التاسع

تفرع اللغة الواحدة

إلى لهجات ولغات

يرجع السبب الرئيسي في هذا التفرع إلى انتشار اللغة في مناطق مختلفة واسعة، واستخدامها لدى جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس. ولكن هذا السبب الرئيسي لا يؤدي عن طريق مباشر إلى تفرع اللغة؛ بل يتيح الفرص لظهور عوامل أخرى تؤدي إلى النتيجة.

وتبدو هذه النتيجة في صورتين إحداهما: انشعاب اللغة الواحدة إلى «لهجات محلية Dialectes locaux» يتكلم بكل لهجة منها منطقة خاصة من مناطق هذه اللغة؛ وثانيتهما انشعاب اللغة الواحدة إلى «لهجات اجتماعية Dialectes sociaux» تتكلم بكل لهجة منها طبقة خاصة من طبقات السكان.

وسنقف الفقرة الأولى من هذا الفصل على دراسة السبب الرئيسي في التفرع وهو انتشار اللغة.

ونقف الفقرة الثانية على دراسة العوامل التي يتيحها السبب الرئيسي السابق، وتؤدي عن طريق مباشر إلى تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات. ونقف الفقرتين الثالثة والرابعة على دراسة الصورة الأولى من صور هذا التفرع وهي التي تتمثل في انشعاب اللغة الواحدة إلى «لهجات محلية»؛

والفقرتين الخامسة والسادسة على دراسة الصورة الثانية من صور هذا التفرع وهي التي تتمثل في انشعاب اللغة الواحدة إلى « لهجات اجتماعية » .

— ١ —

انتشار اللغة وأسبابه

وأثره الرئيسي في التفرع اللغوي

تختلف اللغات الإنسانية في مبلغ انتشارها اختلافا كبيرا ، فمنها ما متاح له فرص مواتية ، فينتشر في مناطق واسعة من الأرض ، ويتكلم به عدد كبير من الأمم الإنسانية ؛ كما حدث للاتينية والعربية في العصور القديمة والوسطى ، وللإنجليزية والإسبانية والبرتغالية والفرنسية والألمانية في العصور الحديثة . ومنها ما تسد أمامه المسالك ، فيقضى عليه أن يظل حبيسا على منطقة ضيقة من الأرض وفئة قليلة من الناس ؛ كما حدث للأينو^(١) والبسكية^(٢) والليتونية^(٣) . ومنها ما يكون حاله وسطا بين هذا وذاك فلا تتسع مناطقه كل السعة ولا تضيق كل الضيق ؛ كما هو شأن الحبشية والفارسية .

هذا ، ولا انتشار اللغة أسباب كثيرة يرجع أهمها إلى مايلي :

١ — أن تشتبك اللغة في صراع مع لغة أو لغات أخرى ، وتقضى

(١) يتكلم بها الآن نحو عشرين ألفا من سكان جزر هو كادو وسكها لين وشيكوتو

التابعة لليابان (انظر ص ٦٢ رقم ٣) .

(٢) يتكلم بها الآن نحو ٨٠٠٠٠٠ من الباسكين الذين يقطنون جبال البرانس

الغربية في العدوتين الفرنسية والأسبانية (انظر ص ٦٥ رقم ١٢) .

(٣) يتكلم بها سكان ليتونيا الذين يبلغ عددهم الآن نحو مليونين (انظر

ص ٥٣ رقم ٨) .

نواميس الصراع اللغوي أن يكتب لها النصر^(١) فتحتل مناطق اللغة أو اللغات المقهورة ، فيتسع بذلك مدى انتشارها ، وتدخل أمم جديدة في عداد الناطقين بها . كما حدث لللاتينية في العصور القديمة إذ تغلبت على اللغات الأصلية لإيطاليا وإسبانيا وبلاد الجول La Gaule (فرنسا وما إليها) والألب الوسطى والإليريا Illyrie ، فأصبحت لغة الحديث والكتابة في منطقة واسعة في القسم الجنوبي الغربي من أوروبا ، بعد أن كانت قديما مقصورة على منطقة ضيقة في وسط إيطاليا ، هي منطقة اللاتيوم Latium . وكما حدث للغة العربية إذ تغلبت على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية والكوشيتية ، حتى بلغ الآن عدد الناطقين بها نحو ٦٠ مليوناً ينتمون إلى نحو خمس عشرة أمة ، بعد أن كانوا قديما لا يتجاوزون بضعة آلاف يقطنون منطقة ضيقة في الجنوب الغربي من بلاد العرب^(٢) . وكما حدث للألمانية إذ طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لها بأوروبا الوسطى (بألمانيا وسويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا.... الخ) وقضت على لهجاتها الأولى ، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لنحو مائة مليون من سكان أوروبا ، بعد أن كانت قديما مقصورة على بعض المقاطعات الألمانية .

٢ — أن ينتشر أفراد شعب ما ، على أثر هجرة أو استعمار ، في مناطق جديدة بعيدة عن أوطانهم الأولى ، ويتكون من سلالاتهم بهذه المناطق أمة أو أمم متميزة كثيرة السكان ، فيتسع بذلك مدى انتشار لغتهم ، وتعدد الجماعات الناطقة بها ، ويكثر أفرادها . والأمثلة على ذلك كثيرة في العصور

(١) انظر فصل الصراع اللغوي بكتابنا « علم اللغة » (الطبعة الثانية صفحات

(٢) انظر ص ٦٠ .

(١٣٨ — ١٥٣) .

الجديدة . فقد نجم عن استعمار الإنجليز السكسون لأمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا أن انتشرت الإنجليزية في هذه المناطق المبعثرة فبلغ عدد الناطقين بها نحو مئتي مليون موزعين على مختلف قارات الأرض ، بعد أن كانت قديما محصورة في منطقة ضيقة من الجزر البريطانية ^(١) . ونجم عن الاستعمار الإسباني في الدنيا الجديدة أن أصبحت الإسبانية لغة بلاد المكسيك وجزر الفيليبين وجميع دول أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ماعدا البرازيل ، فبلغ عدد للناطقين بها نحو ٧٠ مليونا ينتمون إلى نحو خمس عشرة أمة ، بعد أن كانت محصورة في منطقة ضيقة في الجنوب الغربي من أوروبا . ونجم عن الاستعمار البرتغالي في الدنيا الجديدة وأفريقيا والأوقيانوسية أن أصبحت البرتغالية لغة سكان البرازيل بأمريكا الجنوبية وسكان المستعمرات البرتغالية بأفريقيا وجزر المحيط الهندي ، فبلغ عدد الناطقين بها نحو ٥٠ مليونا ينتمون إلى عدة أمم ، بعد أن كانت محصورة في منطقة ضيقة في بلاد البرتغال نفسها .

٣ — أن يتاح للجماعة ما أسباب مواتية للنمو الطبيعي في أوطانها الأصلية نفسها ، فيأخذ عدد أفرادها وطوائفها في الزيادة المطردة ، وتنشط حركة العمران في بلادها ، فتكثر فيها المدن والقرى وتتعدد الأقاليم والمناطق ، فيمتسع تبعاً لذلك نطاق لغتها ومدى انتشارها : كما حدث لليابانية والفرنسية والإيطالية . فبفضل هذا العامل بلغ عدد الناطقين باليابانية في اليابان نفسها

(١) يتكلم كذلك في اتحاد جنوب أفريقيا بلغة تسمى الأفريكانية ، وهي منحدرة من الهولندية التي كان يتكلم بها الهولنديون ، وقد كانوا أول من أقام في مستعمرة «الكاب» ، ومن اللغة الفرنسية التي كان يتحدث بها المهاجرون (الهوجنوت) الذين قدموا فيما بعد إلى الكاب . وتعد الأفريكانية إحدى اللغتين الرسميتين في الاتحاد . أما الثانية فهي اللغة الإنجليزية . ويتغاطب بالأفريكانية معظم أهل جنوب أفريقيا بطلاقة .

ما يزيد على سبعين مليوناً^(١)؛ وبفضله كذلك ، مع مساعدة العاملين السابقين ، بلغ عدد الناطقين بالفرنسية نحو ٥٠ مليوناً^(٢) وبالإيطالية نحو ٢٥ مليوناً^(٣) .

* * *

هذا ، ومتى انتشرت اللغة في مناطق واسعة من الأرض تحت تأثير عامل من العوامل السابق ذكرها ، وتكلم بها جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس ، استحال عليها الاحتفاظ بوحدها الأولى أمداً طويلاً . فلا تلبث أن تنشعب إلى لهجات ، وتسلك كل لهجة من هذه اللهجات في سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينها وبين أخواتها حتى تصبح لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها . وبذلك يتولد عن اللغة الأولى فصيلة أو شعبة من اللغات يختلف أفرادها بعضها عن بعض في كثير من الوجوه . ولكنها تظل مع ذلك متفقة في وجوه أخرى ، إذ يترك الأصل الأول في كل منها آثاراً تنطق بما بينها من صلات قرابة ولحمة نسب لغوى . وكثيراً ما يبقى الأصل الأول مدة ما لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منه ، ولكنه لا يلبث أن يتنجى عن ذلك بعد أن يكتمل نمو هذه اللغات .

ولهذا القانون خضعت اللغات الإنسانية من مبدأ نشأتها إلى العصر الحاضر . فاللغة الهندية — الأوروبية الأولى قد انشعبت في ضحى الإنسانية إلى مجموعات كثيرة ، وكل مجموعة منها تفرعت إلى عدة طوائف ، وكل

(١) يدل آخر تعداد رسمى قبيل الحرب الأخيرة على أن عدد الشعب اليابانى بلغ ٧٣,١١٤,٣٠٨ ، وأن عدد سكان الإمبراطورية اليابانية قد بلغ ١٠١,٢٦٦,١٠٥ .

(٢) منهم بفرنسا نحو ٤١ مليوناً واليابانى ببلجيكا وسويسرا وكندا والمستعمرات الفرنسية . (٣) معظمهم بإيطاليا نفسها والباقي بسويسرا والمستعمرات الإيطالية .

طائفة انقسمت إلى شُعب وكل شعبة إلى لغات . . . وهكذا دواليك ^(١) .
ومثل هذا حدث للغة السامية - الحامية الأولى ^(٢) ولجميع الفصائل
اللغوية الأخرى ^(٣) .

وقد شهدت عصورنا التاريخية نفسها كثيراً من آثار هذا القانون .
فاللغة اللاتينية ، وهي إحدى لغات الفرع الإيطالي المنشعب من الهندية -
الأوروبية ، قد أخذت هي نفسها ، في أواخر العصور القديمة وفي العصور
الوسطى ، تنشعب إلى عدد كبير من اللهجات ، وأخذت كل لهجة من
هذه اللهجات تسلك في سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج أخواتها ،
حتى انفصلت عنها انفصالا تاماً ، وأصبحت لغة متميزة مستقلة غير مفهومة
إلا لأهلها . وقد بقيت اللاتينية مدة ما لغة أدب وكتابة بين الشعوب
الناطقية باللغات المتفرعة منها (الفرنسية ، الإيطالية ، الإسبانية ، البرتغالية
لغة رومانيا . . .) ؛ ولكنهما لم تلبث أن تنحيت عن ذلك بعد أن اكتمل
عمو هذه اللغات .

والعصر الحاضر نفسه يشهد كثيراً من آثار هذا القانون . فلانتشار
اللغة الإسبانية في مناطق واسعة مبعثرة ، ولاختلاف الطوائف المتكلمة بها ،
أخذت تفقد وحدتها ، فانشعب عنها في أمريكا الجنوبية لهجات كثيرة
تختلف كل منها عن الإسبانية الأصلية اختلافاً غير يسير في كلماتها وأصواتها ؛
بل إن بعض هذه اللهجات أخذت يختلف عن الإسبانية الأصلية في القواعد
نفسها ^(٤) . ومثل هذا حدث بين البرتغالية في البرتغال والبرتغالية في

(١) انظر صفحات ٥١ — ٥٦ .

(٢) انظر صفحات ٥٦ — ٦٠ .

(٣) انظر صفحات ٦٠ — ٧٠ .

(٤) وقد ألف بعض العلماء كتباً مستقلة في بعض هذه اللهجات ككتاب الأستاذ
لنز Lenz في قواعد لهجة شبلي .

البرازيل . فقد وصل الخلاف بينهما إلى القواعد نفسها ، بل إلى شكل الرسم كذلك ^(١) . وهذا هو ما يحدث الآن للإنجليزية والألمانية . فقد أخذت الإنجليزية الولايات المتحدة بأمريكا تختلف عن الإنجليزية الجزر البريطانية في كثير من المفردات وأساليب النطق ^(٢) . وأخذت ألمانية سويسرا تبتعد عن أصلها ويزداد تأثرها بجارتها الفرنسية ، حتى توشك أن تكون لهجة متميزة عن ألمانية الألمان . وقد اتسعت مسافة الخلاف بين اللهجات المنشعبة عن العربية حتى أصبح بعضها غريباً على بعض : فلهجة العراق في العصر الحاضر مثلاً لا يكاد يفهمها المصري . غير أنه قد خفف من أثر هذا الانقسام اللغوي بقاء العربية الأولى بين هذه الشعوب لغة أدب وكتابة ودين .

(١) جاء بجريدة الأهرام في عددها الصادر يوم ٢٩ — ٣ — ١٩٤٤ بصدد اتفاق هجائي لغوي بين البرتغال والبرازيل ما يلي :

« تلقت وزارة الخارجية من معالي محمود غفرى باشا وزير مصر المفوض في إسبانيا والبرتغال تقريراً عن اتفاق هجائي لغوي عقد أخيراً بين الحكومتين البرتغالية والبرازيلية الغرض الأساسي منه تنظيم اللغة البرتغالية وتنقيحها ، وذلك بتوحيد شكلها الهجائي ونطق كلماتها . وكان الوصول إلى وضع هذا الاتفاق بفضل مساعي كبار الكتاب في البلدين . وهذا أول اتفاق من نوعه يعزز الفكرة التي ترمي إلى توحيد الشعوب التي تتكلم لغة واحدة . وختم الوزير المفوض تقريره بالإعراب عن أمنية هي أن تعمل البلاد العربية على تنظيم لغتنا وتوحيد اصطلاحاتها وتعميم نطقها بين مختلف الشعوب الناطقة بالضاد .

(٢) حتى أن الإنجليز ليسخروا من اللهجة الأمريكية ، كما يسخر الأمر بكان من لهجة الإنجليز ؛ ولا يكتم كل منهم سخريته هذه حتى في أخرج الأوقات وأدعاها إلى نسيان الفروق . يدل على ذلك ما جاء في نشرة وزعتها القيادة الأمريكية على قواتها الموجودة في بريطانيا في أثناء الحرب الأخيرة ، إذ تقول مخاطبة أفراد هذه القوات : « ولا تسخر باللهجة البريطانية ، لأن لهجتك قد تكون مثار سخركم ؛ ولكنهم أكثر أدبا من أن يظهروا لك ذلك » . (جريدة الأهرام بتاريخ ١٣ — ٧ — ١٩٤٢) .

العوامل المباشرة في تفرع اللغة

فالسبب الرئيسى في تفرع اللغة إلى لهجات ولغات هو سعة انتشارها . غير أن هذا السبب لا يؤدي إلى ذلك بشكل مباشر ، بل يتيح الفرص لظهور عوامل أخرى تؤدي إلى هضم النتيجة . وباستقراء هذه العوامل في الماضى والحاضر يظهر أن أهمها يرجع إلى الطوائف الآتية :

١ - عوامل اجتماعية سياسية تتعلق باستقلال المناطق التى انتشرت فيها اللغة بعضها عن بعض وضعف السلطان المركزى الذى كان يجمعها ويوثق ما بينها من علاقات . وذلك أن اتساع الدولة ، وكثرة المناطق التابعة لها ، واختلاف الشعوب الخاضعة لنفوذها ... كل ذلك يؤدي غالباً إلى ضعف سلطانها المركزى ، وتفككها من الناحية السياسية ، وانقسامها إلى دويلات أو دول مستقل بعضها عن بعض . وغنى عن البيان أن انقسام الوحدة السياسية يؤدي إلى انقسام الوحدة الفكرية واللغوية .

٢ - عوامل اجتماعية نفسية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات ومبلغ الثقافة ومناخى التفكير والوجدان . فمن الواضح أن الاختلاف في هذه الأمور يتردد صداه في أداة التعبير .

٣ - عوامل جغرافية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في الجو وطبيعة البلاد وبيئتها وشكلها وموقعها ... وما إلى ذلك ، وفيما يفصل كل منطقة منها عن غيرها من جبال وأنهار وبحار وبحيرات ... وهلم جرا . — فلا يخفى أن هذه الفروق والفواصل الطبيعية تؤدي ، عاجلاً أو آجلاً ، إلى فروق وفواصل في اللغات .

٤ — عوامل شعبية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في الأجناس والفصائل الإنسانية التي ينتمون إليها والأصول التي انحدروا منها. — فمن الواضح أن لهذه الفروق آثاراً بليغة في تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات.

٥ — عوامل جسمية فيزيولوجية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في التكوين الطبيعي لأعضاء النطق^(١). — فمن المحال ، مع فروق كهذه ، أن تظل اللغة محتفظة بوحدتها الأولى أمداً طويلاً.

فانقسام المتكلمين باللغة الواحدة تحت تأثير هذه العوامل إلى جماعات متميزة ، واختلاف هذه الجماعات بعضها عن بعض في شؤنها السياسية والاجتماعية ، وفي خواصها الشعبية والجسمية والنفسية ، وفيما يحيط بها من ظروف طبيعية وجغرافية ، كل ذلك وما إليه يوجه اللغة عند كل جماعة منها وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها ، ويرسم لتطورها في النواحي الصوتية والدلالية وغيرها منهجاً يختلف عن منهج أخواتها ، فتتعدد مناهج التطور اللغوي حسب تعدد الجماعات ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بين اللهجات الناشئة عن هذا التعدد ، حتى تصبح كل لهجة منها لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها.

ويبدأ الخلاف بين هذه اللهجات من ناحيتين : إحداهما الناحية المتعلقة بالصوت ، فتختلف الأصوات (الحروف) التي تتألف منها الكلمة الواحدة ،

(١) ترجع هذه الفروق إلى عوامل كثيرة منها العاملان الجغرافي والشمسي المشار إليهما آنفاً تحت رقي ٣ ، ٤ .

وتختلف طريقة النطق بها تبعاً لاختلاف اللهجات ؛ والأخرى الناحية المتعلقة بدلالة المفردات ، فتختلف معاني بعض الكلمات باختلاف الجماعات الناطقة بها .

أما القواعد La Grammaire سواء في ذلك ما يتعلق منها بالبنية (المورفولوجيا) ^(١) أو ما يتعلق منها بالتنظيم (السنتركس) ^(٢) ، فلا ينالها في المبدأ كثير من التغيير . وإليك مثلاً اللهجات العامية التي انشعبت عن العربية بالعراق والشام والحجاز واليمن ومصر وبلاد المغرب ... ؛ فإنه لا يوجد بينها إلا فروق ضئيلة في نظام تكوين الجملة وتغيير البنية وقواعد الاشتقاق والجمع والتأنيث والوصف والنسب والتصغير ... وما إلى ذلك ؛ علي حين أن مسافة الخلاف بينها في الناحيتين الصوتية والدلالية قد بلغت حداً جعل بعضها غريباً على بعض كما سبقت الإشارة إلى ذلك ^(٣) .

ولكن هذه الوحدة في القواعد لا تقوى على مقاومة عوامل التفريق إلا لأجل معلوم ؛ ثم تهن قواها وتستسلم لهذه العوامل فيصيبها ما أصاب الصوت والدلالة من قبل . وحينئذ تقوى وجوه الخلاف بين اللهجات ، وتبدأ مرحلة تحولها إلى لغات مستقلة ، ولا تنفك تذهب حثيثاً في هذا الطريق حتى تبلغ غايته .

غير أنه يبقى بها ، على الرغم من هذا كله ، وجوه شبه قريبة أو بعيدة في أصول المفردات وبعض مظاهر القواعد العامة . وإليك مثلاً طوائف اللغات الهندية — الأوربية : فعلى الرغم من استحكام ما بينها من حلقات

(١) انظر صفحة ٦ من الطبعة الثانية لكتابنا « علم اللغة » .

(٢) انظر صفحتي ٦ ، ٧ من الطبعة الثانية لكتابنا « علم اللغة » .

(٣) انظر صفحة ٩٢ .

الخلاف ، فإن الأصل الأول قد ترك في كل منهما آثاراً تنطق بما بينهما من صلاة قرابة وتشهد بتفرعها عن أرومة واحدة .

* * *

ومن هذا يتبين أن اللغة لا تموت حتف أنفها . فما لم تصرعها لغة أخرى لا يتطرق إليها الفناء . وخلودها هذا يمدو في أحد مظهرين : فأحياناً تحتفظ بوحدها ، وذلك إذا ظلت حبيسة على منطقة ضيقة وفئة قليلة ؛ وأحياناً تنشعب إلى لهجات ولغات ، وذلك إذا انتشرت في مساحات واسعة من الأرض ، وتسكلم بها طوائف مختلفة من الناس .

— ٣ —

اللهجات المحلية ، وصراعتها بعضها مع بعض

ونشأة لغة الدولة أو اللغة الفصحى أو لغة الكتابة

يترتب على القانون السابق أن تختلف اللهجات في الأمة الواحدة تبعاً لاختلاف أقاليمها وما يحيط بكل إقليم منها من ظروف وما يمتاز به من خصائص . وقد جرت عادة علماء اللغة أن يطلقوا على هذا النوع من اللهجات اسم اللهجات المحلية *Dialects Locaux* . وتختلف هذه اللهجات بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً في المساحة التي يشغلها كل منها : فمنها ما يشغل مقاطعة كاملة من مقاطعات الدولة ؛ ومنها ما تضيق مناطقه فلا تشمل إلا بضعة قرى متقاربة ؛ ومنها ما يكون وسطاً بين هذا وذاك . وكثيراً ما تختلف هذه المناطق اللغوية في حدودها عن المناطق المصطلح عليها في التقسيم الإداري

والسيامي . فقد تقسم القرى التي تتألف منها منطقة لغوية واحدة بين مديرتين أو أكثر ؛ وقد يجتمع في مديرية واحدة أو مركز واحد عدد كبير من المناطق اللغوية . ولدينا نحن المصريين على ذلك شواهد كثيرة في مختلف أقاليم الصعيد والوجه البحري .

وتعمل كل لهجة من اللهجات المحلية على الاحتفاظ بشخصيتها وكيانها فلا تدخر وسعاً في محاربة عوامل الابتداع والتغيير في داخل منطقتها ، ولا تألو جهداً في درء ما يوجه إليها من خارجها من هجمات .

أما محاربة عوامل الابتداع في داخل منطقتها فتتم بفضل العلاقات الوثيقة التي تربط الناطقين بها بعضهم ببعض وتربطهم ببيئتهم ومجتمعهم . وذلك أنه بقوة هذه العلاقات يقوى الضمير الجمعي ، وتؤكد سيطرة النظم الاجتماعية ، ويعظم نفوذها ، ويشتمد بطشها بالمعتدين . فكل محاولة فردية للخروج على النظام اللغوي تلقى في مجتمع قوى كهذا مقاومة عنيفة تكفل القضاء عليها في مهدها . وبذلك تتقى اللهجة ما عسى أن يوجه إليها في داخل منطقتها من محاولات الابتداع وعوامل التغيير .

وأما حمايتها من اللهجات المجاورة لها فيرجع الفضل فيها إلى ضعف الصلات التي تربط أهلها بمجاوريهم ، وقلة فرص احتكاكهم بهم ، وما يبدو أنه في العادة من نزوع إلى العزلة والاستقلال . — ويظهر هذا على الأخص في البيئات الزراعية التي تقل فيها وسائل المواصلات ، وتضعف حركة انتقال الأفراد ، ويكاد سكان كل منطقة يعيشون في معزل عن سكان المناطق الأخرى . — حقا إن تزوج بعض الرجال في هذه البيئات إلى نساء من غير مناطقهم ، وهجرة بعض الأفراد من بلادهم إلى البلاد المجاورة لها ، كل ذلك وما إليه يجلب إلى البلد عناصر أجنبية عنه . ولكن قلة عدد من ينفذ

من الأجانب عن هذه الطرق وماشاكلها ، وانتماءهم في الأصل إلى مناطق لغوية مختلفة ، ودخولهم البلد فرادى وفي أزمنة متباعدة ، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض ، وإقامة كل منهم بين مجموعة من الناس تختلف لهجة أفرادها عن لهجته ، وما يبيده أهل المنطقة حيال لهجاتهم من سخرية وازدراء ، وصعوبة فهم حديثهم أحياناً . . . كل ذلك وما إليه لا يحول دون تأثير لهجة البلد بلهجاتهم فحسب ، بل من شأنه كذلك أن يحملهم على محاكاة لسان المنطقة التي يقيمون فيها. — وأما البيئات التجارية والصناعية والساحلية التي يكثر في العادة احتكاك أهلها بغيرهم ، فيرجع الفضل في حماية لهجاتها إلى قلة عدد الأجانب بالنسبة إلى سكانها الأصليين ، وانتماءهم إلى مناطق لغوية مختلفة ، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض ، وقصر مدة إقامتهم ، لأن معظمهم يفد إلى البلد في شئون لا تقتضيه الإقامة ساعات أو أيام .

* * *

غير أنه قد يتاح أحياناً للهجة محلية فرص للاحتكاك الدائم بلهجة أخرى . وحينئذ تشتبك اللهجتان في صراع أهلى لا يختلف كثيراً في مظاهره وطرقه عن الصراع الذي ينشب بين لغتين مختلفتين ^(١) .

وينتهي هذا الصراع إلى إحدى نتيجتين : فأحياناً لا تكاد إحدى اللهجتين تؤثر في الأخرى ، وذلك إذا تساوى أهل المنطقتين في الثقافة والقوة والنفوذ ؛ وأحياناً تغاثر إحداها بالأخرى ، وذلك إذا كانت أقل منها في مظهر من المظاهر السابقة .

(١) انظر فصل الصراع بين اللغات في كتابنا علم اللغة (الطبعة الثانية صفحات

وتختلف درجة التأثير باختلاف الأحوال : فأحياناً يكون سيراً لا ينال إلا بعض مظاهر ؛ وأحياناً يكون عميقاً ينتهي بالقضاء على اللهجة المغلوبة . فيكون سيراً إذا لم تكن الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين في الثقافة والنفوذ والسلطان . ويبدو هذا في تأثير لهجة القرى بلهجة المدينة التي تجاورها أو يكون بها مقر المديرية أو المركز ، أو في تأثيرها بلهجة البلد الذي يتخذ مقراً لنقطة البوليس أو للعمدية أو التي يقام فيها السوق الأسبوعي ... وهلم جرا . ففي هذه الحالات وما إليها يقف التأثير عند حد اقتباس الكلمات والتراكيب وطرق استخدام المفردات في معانيها الحقيقية والمجازية ... وما إلى ذلك . أما الأساليب الصوتية وطريقة النطق بالحروف والكلمات فتظل بمنجاة من التأثير والتحريف . ومن ثم نرى أن القرى المحيطة بقاعدة مديرية من مديريات القطر المصري قد تقتبس عنها كثيراً من ألفاظها وتراكيبها ومذلولات مفرداتها ... ؛ ولكن لهجاتها تظل سليمة فيما يتعلق بالأصوات وطريقة النطق بالكلمات . فالقرى المصرية التي تقلب في لهجاتها القاف العربية جيماً غير معطشة (جلنا = قلنا) قد تجاور مدينة تختلف عنها في هذا الأسلوب الصوتي (بأن تقلب فيها مثلاً القاف العربية همزة : ألنا = قلنا) ، فتقتبس عنها كثيراً من مفرداتها وتراكيبها ودلالاتها وأساليبها ؛ ولكن تظل طريقتهما الصوتية حيال القاف العربية بمأمن من التأثير بطريقة المدينة ، اللهم إلا في الكلمات التي تقتبسها منها .

أما إذا كانت الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين في ناحية من النواحي السابق ذكرها ، فإن التأثير يكون عميقاً لدرجة تصل أحياناً إلى القضاء على اللهجة المغلوبة . ويحدث هذا في حالتين :

(الحالة الأولى) أن تكون إحدى المنطقتين خاضعة لسلطان المنطقة

الأخرى . ففي هذه الحالة يكتب النصر للهجة المنطقة ذات السلطان ، على شريطة أن لا تقل عن المنطقة الأخرى حضارة وثقافة وآداباً . والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ القديم والحديث : فلهجة باريس ، حيث مقر الحكومة والسلطان ، قد قضت على كثير من لهجات المقاطعات الفرنسية التي خضعت لنفوذ باريس ؛ وكذلك فعلت لهجة لندن مع عدد كبير من اللهجات الإنجليزية الأخرى ؛ ولهجة مدريد مع اللهجات الإسبانية ؛ ولهجة روما في العصور القديمة مع أخواتها الإيطالية ؛ ولهجة قریش قبل الإسلام مع اللهجات المضرية الأخرى وهلم جرا .

(الحالة الثانية) أن تفوق إحدى المنطقتين المنطقة الأخرى في ثقافتها وحضارتها وآداب لغتها . ففي هذه الحالة يكتب النصر للهجتها وإن لم يكن لها سلطان سياسى على المنطقة الأخرى . ولذلك أخذت اللهجة السكسونية بألمانيا تطارد اللهجات الألمانية الأخرى منذ القرن السادس عشر الميلادى ، أى قبل أن تتكون الدولة الألمانية الحديثة وقبل أن تظهر غلبة برلين^(١) ؛ وأخذت التوسكانية Toscan بإيطاليا تقهر اللهجات الإيطالية الأخرى منذ القرن الرابع عشر الميلادى . أى قبل أن تتكون الدولة الإيطالية الحديثة ، وقبل أن يظهر سلطان روما^(٢) ؛ وذلك بفضل ما كان لكل من السكسونية والتوسكانية من إنتاج أدبى لا يذكر بجانبه إنتاج أخواتها التي اشتبكت معها في هذا الصراع .

وفي كلتا الحالتين السابقتين يختلف الصراع في مدته وعنفه تبعاً لمبلغ قرب اللهجتين إحداهما من الأخرى ومبلغ ثقافة المنطقة المغلوبة . فيطول

(١) على أن برلين لم تكن مهد السكسونية ، بل انتقلت إليها كما انتقلت إلى غيرها .

(٢) على أن روما لم تكن مهد الإيطالية الحديثة ، بل انتقلت إليها كما انتقلت

إلى غيرها .

أمدته ويشتهد عنفه كلما كثرت وجوه الخلف بين اللهجتين أو قلت ثقافة الناطقين باللهجة المقهورة . فلهجة مدريد لم تقو بعد على التغلب على كثير من اللهجات الإسبانية الأخرى ، ولا تزال إلى الآن تلقى مقاومة عنيفة من جانبها ، وذلك لتفشى الجهل والأمية بين الناطقين بهذه اللهجات . - ولهذا السبب نفسه لم يتم بعد للهجة القاهرة التغلب على لهجات المناطق المصرية المجاورة لها . - وفي القسم الفرنسى اللغة من سويسرا لا تزال اللهجات المحلية تقاوم الفرنسية الفصحى فى المناطق الكاثوليكية (قاله ، فريبورج . . . Valais, Fribourg) ، على حين أنه قد تم انقراض هذه اللهجات أو كاد فى المناطق البروتستانتية (نيوشاتل ، جنيف . . .) ؛ وذلك لأن المناطق البروتستانتية من هذا القسم أرقى ثقافة وعلماً من المناطق الكاثوليكية وأقدم منها عهداً بالمدارس . ولسان باريس قد تغلب بسهولة على اللهجات التى كانت منتشرة فى إقليمى السين والوار ، لقلة وجوه الخلف بينه وبينها ؛ على حين أنه لم يقو بعد على التغلب على لهجات جنوب فرنسا ولا يزال يلقى منها مقاومة عنيفة ، لكثرة الفروق التى تفصلها عنه . هذا ، ويسير تغلب لهجة على أخرى على نفس السنن الذى يسير عليه تغلب اللغات المختلفة بعضها على بعض ^(١) . ففى المرحلة الأولى تقذف اللهجة الغالبة اللهجة الأخرى بطائفة كبيرة من مفرداتها فتوهن بذلك متنها الأصلية وتجرده من كثير من مقوماته . ولكن اللهجة المغلوبة تظل طوال هذه المرحلة محتفظة بمخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات . فينطق أهلها بألفاظهم الأصلية وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة طبقاً لسلوبهم الصوتى ومخارج حروفهم ، حتى أنهم ليستبدلون فى الكلمات الدخيلة بالحروف التى

(١) انظر تفصيل ذلك بكتابنا « اللغة والمجتمع » صفحتى ٨٨ ، ٨٩ .

لا يوجد لها نظير لديهم حروفاً قريبة منها من حروف لهجتهم . - وفي المرحلة التالية تنسرب إلى اللهجة المغلوبة أصوات اللهجة الغالبة ومخارج حروفها وأساليها في نطق الكلمات ؛ فينطق أهل اللهجة المغلوبة بألفاظهم الأصلية وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة من نفس المخارج وبنفس الطريقة التي يسير عليها النطق في اللهجة الغالبة ، فيزداد بذلك انحلال اللهجة المغلوبة ويؤذن نجمها بالأفول . ولكنها تظل طوال هذه المرحلة مستبسلة في الدفاع عن قواعد الصرفية والتنظيمية (المورفولوجيا والسنسكريس) وفي مقاومة قواعد اللهجة الغالبة ، إن كانت تختلف عنها في القواعد ^(١) . فيركب أهلها جملهم ويصرفون كلماتهم وفق أساليبهم الأولى . وفي المرحلة الأخيرة تضعف هذه المقاومة شيئاً فشيئاً ، فتأخذ قواعد اللغة في الاستيلاء على الألسنة حتى يتم لها الظفر ، فيتم بذلك الإجهاز على اللهجة المغلوبة . غير أنها كثيراً ما تترك في ألسنة أهلها بعض آثار من قواعد القديمة . فكثير من سكان جنوب فرنسا لا يزالون يؤلفون عباراتهم في صور تختلف في قواعدها عن قواعد الفرنسية الفصحى ، ولكنها تتفق مع قواعد لهجاتهم المندثرة .

واللهجة التي يتاح لها التغلب في أمة على بقية أخواتها أو على معظمها نصبح ، عاجلاً أو آجلاً ، « لغة الدولة » أو ما يطلق عليه اسم « اللغة القومية » أو « اللغة الفصحى » أو « لغة الكتابة » . فتعلم وحدها في مدارس الدولة ، ويجرى بها تدريس المواد المختلفة في معاهدها ، وتؤلف بها الكتب والصحف والمجلات ، وتصدر بها المكاتبات الرسمية وغيرها ، وتستخدم في مختلف نواحي الوعظ والخطابة ، وتلقى بها الأوامر ويجرى بها التخاطب في الجيش . . .

(١) لا يكون الاختلاف في العادة كبيراً في القواعد بين اللهجات المنسوبة من لغة واحدة قبل أن يستقل بعضها عن بعض وتصبح لغات منفصلة .

وهلم جرا^(١) . فقد ترتب على تغلب لهجة باريس على معظم أخواتها أن أصبحت «لغة الدولة» بفرنسا ؛ وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغة الفرنسية . وهذا هو ما حدث عقب تغلب لهجة لندن بالانجلترا ومدر يد بإسبانيا واللهجة السكسونية بألمانيا والتوسكانية بإيطاليا ؛ فقد أصبحت هذه اللهجات هي اللغات الرسمية ؛ وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغات الإنجليزية والإسبانية والألمانية والإيطالية .

وتسلك لغات الكتابة في تطورها طريقا خاصة تختلف عن الطريق التي تسلكها لغات المحادثة ، كما سيظهر لك في الفقرة التالية . ولذلك نرى أن لغة الكتابة مع اتفاقها في المبدأ مع لهجة المحادثة الغالبة ، لا تلبث فيما بعد أن تختلف عنها في كثير من الشؤون ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينهما حتى تستقل كل منهما عن الأخرى . فلغة الكتابة بفرنسا تختلف الآن عن لهجة المحادثة الباريسية اختلافا غير يسير .

— ٤ —

اختلاف نواحي اللغة الفصحى باختلاف فنون القول

لغة الآداب وخصائصها وأنواعها : الشعر والنثر ،

وظيفة اللغة : الدلالة والإيجاء

كما تنشعب لغة المحادثة إلى لهجات مختلفة تبعا لاختلاف الأقاليم وما

(١) قد لا يكون للأمة أى لغة قومية مستقلة ، كما هو شأن النمسا ، فإن لغتها هي الألمانية . وقد يكون للدولة أكثر من لغة رسمية واحدة ، كما هو شأن سويسرا ، فإن بها ثلاث لغات رسمية : الألمانية والفرنسية والإيطالية . وقد تكون اللغة الرسمية ولغة الكتابة في الأمة هي اللغة القديمة التي انشعبت منها لهجاتها ، كما كان شأن اللاتينية بفرنسا وإيطاليا وأسبانيا والبرتغال ورومانيا ، وكما هو شأن اللغة العربية الآن بمصر وبلاد العرب وشمال أفريقيا .

يحيط بكل إقليم من ظروف وما يمتاز به من خصائص ، تنشعب كذلك لغة الكتابة أو اللغة الفصحى إلى شعب مختلفة تبعاً لاختلاف فنون القول التي تستخدم فيها ، وما يمتاز به كل فن منها : الشعر ، النثر الأدبي ، الخطابة ، القصة ، الرسائل ، التاريخ ، القانون ، تدوين العلوم . . . الخ . وذلك أن كل فن من هذه الفنون يختلف عما عداه في طبيعته وأغراضه البيانية ومناهج الاستدلال فيه ، ومقدار صلته بكل من الناحيتين الوجدانية والإدراكية ، ومدى إقبال الجمهور عليه وأثره في نفسه وتلاؤمه مع اتجاهاته وحاجاته ، ومبلغ نشاط المشتغلين به وما يبتغونه فيه من اصطلاحات ويدخلونه من أساليب ويقتبسونه عن اللغات الأجنبية من مفردات وأفكار . . . وهلم جرا . وغنى عن البيان أن الاختلاف في هذه الأمور وما إليها يؤدي حتماً إلى اختلاف كل فن من الفنون السابق ذكرها عما عداه في مفرداته وأساليبه ومعانيه وأفكاره ، وطريقة علاجه للحقائق . . . وما إلى ذلك . وقد تتسع مسافة الخلف بين هذه الفنون فتصبح لغة كل منها أشبه شيء بلغة مستقلة . وهذا هو المشاهد الآن في كثير من اللغات الراقية . فبمجرد سماع عبارة في اللغة العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرها من اللغات الراقية يستطيع بسهولة معرفة الفن الذي تتصل به : فعلى ضوء مفرداتها وأسلوبها ونظمها وتراكيبها وطريقة إبانها عن الحقائق . . . يستطيع بسهولة الحكم إن كانت شعراً أم خطابة أم كتابة رسائل أم مقالا صحفياً أم بحثاً علمياً . . . وهلم جرا .

* * *

ومن أهم شعب اللغة الفصحى ما يسمونه لغة الأدب *Langue Littéraire* ، وهى التي تستخدم في الأدب شعره ونثره . وتمتاز هذه الشعبة عن أخواتها

بأن ما يتخذها غيرها وسيلة تتخذها هي غاية ، أو توجه إليه على الأقل أكبر قسط من العناية . ففي جميع الشعب الأخرى (لغة العلوم ، لغة الفلسفة ، لغة التاريخ . . .) يتخذ الكلام مجرد وسيلة للتعبير عن الحقائق . أما في هذه الشعبة فيتمتع البيان نفسه غرضا في ذاته ويوجه إلى تجويده أكبر قسط من الجهود . فأهم ما يقيم له وزن في لغة الأدب هو جمال القول ، ورقة الأسلوب ، وحسن البيان ، ورصانة اللفظ ، وفصاحة الكلام ، وبلاغة التعبير . . . وهلم جرا .

وتنقسم الآداب نفسها إلى فنون كثيرة ، أهمها الشعر وملحقاته ، والنثر الأدبي ، والخطابة ، والقصة . ويختلف كل فن من هذه الفنون عن إخوته في طبيعته ، وموضوعاته ، ومواطن استخدامه ، ومقدار صلته بالوجدان والإدراك ، ومبلغ نشاط المشتغلين به ، وما يناله من تطور وتجديد ، وما يرمى إليه من أغراض . . . الخ . وقد ترتب على ذلك أن كان لكل فن منها خصائصه اللغوية ومميزاته في النظم والوزن ، والتأليف والموسيقى ، وجرس الألفاظ ، وتركيب الجمل ، وطريقة الاستدلال ، وشرح الحقائق ، ومنحى الأسلوب .

وأهم ما يمتاز به الشعر عن غيره أنه يتجه أولا وبالذات إلى مخاطبة الوجدان والعواطف لا الإدراك والتفكير ، وأن غرضه الأساسي هو الإيحاء بالحقائق والاحساسات لا شرح المسائل وتقريبها إلى الأذهان . ولذلك يظهر فيه تعمد الغموض والميل إلى الإيهام ، ويسيطر على أساليبه الخيال ، ويكثر في عباراته التشبيه واستخدام الكلمات والعبارات في غير ما وضعت له عن طريق الكناية والحجاز ، ويبدو فيه النفور من تحليل الحقائق وكراهته التعمق في الشرح والاستدلال . أما نظم العبارات في

أوزان خاصة فليس شرطاً أساسياً في الشعر : فإذا توافرت الصفات السابقة في كلام منشور اعتبر شعراً في الاصطلاح الأدبي ؛ وإن جنح كلام منظوم إلى الشرح والاستدلال والتعمق في توضيح الحقائق ، وتغلبت فيه وجهة الدلالة على وجهة الإيحاء ، فإنه لا يعد شعراً على الرغم من أوزانه وقوافيه .

اختلاف اللهجات في البلد الواحد باختلاف طبقات الناس وفئاتهم

«اللهجات الاجتماعية» Dialectes Sociaux

تنشعب أحياناً لغة المحادثة في البلد الواحد أو المنطقة الواحدة إلى لهجات مختلفة تبعاً لاختلاف طبقات الناس وفئاتهم : فيكون ثمة مثلاً لهجة للطبقة الأرستوقراطية ، وأخرى للجنود ، وثالثة للبجارة ، ورابعة للرياضيين ، وخامسة للبرادين ، وسادسة للنجارين وهلم جرا . ويطلق المحدثون من علماء اللغة على هذا النوع من اللهجات اسم « اللهجات الاجتماعية » Dialectes Sociaux تمييزاً لها عن « اللهجات المحلية » Dialectes Locaux التي كانت موضوع حديثنا في الفقرة الثالثة من هذا الفصل (١) .

ويؤدي إلى نشأة هذه اللهجات ما يوجد بين طبقات الناس وفئاتهم من فروق في الثقافة والتربية ، ومناحي التفكير والوجدان ، ومستوى المعيشة ، وحياة الأسرة ، والبيئة الاجتماعية ، والتقاليد والعادات ، وما تزاوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به من وظائف ، والآثار العميقة التي

(١) يرجع الفضل في هاتين التسميتين إلى العلامة پول باسى paul Passy .

تتركها كل وظيفة ومهنة في عقلية المشتغلين بها ، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته وإنشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التي يكثر ورودها في حياتهم وتستأثر بقسط كبير من انتباههم ، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات في غير ما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم وهلم جرا . فمن الواضح أن هذه الفوارق وما إليها من شأنها أن توجه اللهجة في كل طبقة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها ؛ فلا تلبث أن تنشعب اللهجة العامة إلى لهجات تختلف كل منها عن أخواتها في المفردات وأساليب التعبير وتكوين الجمل ودلالة الألفاظ وما إلى ذلك . وقد تذهب بعض اللهجات الاجتماعية بعيداً في هذا الطريق ، فيشتد انحرافها عن الأصل الذي انشعبت منه ، وتتسع مسافة الخلف بينها وبين أخواتها حتى تسكاذ تصبح لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها : كما هو شأن اللهجات الفرنسية المستخدمة بين طبقات اللصوص والجرمين وبعض طبقات العمال ، Argots des voleurs, des malfaiteurs, et des ouvriers.

ويزداد في العادة انحراف اللهجة الاجتماعية عن أخواتها كلما كثرت الفوارق بين الطبقة الناطقة بها وبقية الطبقات ، أو كانت حياة أهلها قائمة على مبدأ العزلة عن المجتمع أو على أساس الخروج على نظامه وقوانينه . ولذلك كانت في فرنسا لهجات الطبقات الدنيا من العمال ، واللهجات السرية لجماعات المتصوفين والرهبان ، ولهجات الجرمين واللصوص ومن إليهم ، من أكثر اللهجات انحرافاً عن الأصل الذي انشعبت منه ، وبعداً عن المستوى العام لبقية اللهجات الاجتماعية الفرنسية .

ولا تظل اللهجات الاجتماعية جامدة على حالة واحدة ، بل تسير في

نفس السبيل الارتقائي الذي تسير فيه اللهجات المحلية ؛ فيتسع نطاقها باتساع
شؤون الناطقين بها ، ومبلغ نشاطهم ، واحتكاكهم بالأجانب وبأهل
الطبقات الأخرى من مواطنيهم ، وما يخرعون من مصطلحات ويتواضعون
عليه من عبارات ويقتبسونه عن اللغات الأجنبية من مفردات وأفكار ،
وتختلف أساليبها وطرق تركيبها باختلاف العصور وتطور الظروف الاجتماعية
المحيطة بالطبقات الناطقة بها . فلهجات العمال والمجرمين بفرنسا تختلف بعد
الحرب العظمى اختلافاً بيناً عما كانت عليه قبل ذلك ، وتختلف في القرن
العشرين اختلافاً كبيراً عما كانت عليه مثلاً في القرنين الرابع عشر
والخامس عشر . ولا أدل على ذلك من أن معظم القطع التي كتبها بتلك
اللهجات في القرن الخامس عشر الشاعر الفرنسي فرانسوا فيلون François
Villon^(١) لم يستطع بعد في العصر الحاضر حل رموزها وفهم مدلولاتها .

وتؤثر اللهجات الاجتماعية في لغة المحادثة العادية تأثيراً كبيراً ؛ فتستعير
اللغة كثيراً من التراكيب والمفردات ، وبخاصة المفردات التي خصص مدلولها
العام واصطلاح على إطلاقها على أمور خاصة تتعلق بفن أو حرفة وما إلى
ذلك . فلغة المحادثة العادية بباريس في العصر الحاضر قد دخل فيها عن
هذا الطريق كثير من مفردات اللهجات الاجتماعية وبخاصة لهجات
العمال والمجرمين .

ولا تتميز في العادة اللهجات الاجتماعية بعضها عن بعض تميزاً واضحاً
إلا في المدن الكبيرة حيث يتكاثف السكان ، ويزدحم الناس ، وتنشط

(١) شاعر فرنسي ولد بباريس سنة ١٤٣١ وتوفي سنة ١٤٨٩ . وقد عاش
في وسط اللصوص والمجرمين ، واتهم أكثر من مرة بالسرقة والقتل . ومن أشهر
مؤلفاته « العهد الصغير » و « العهد الكبير » Petit Testament; Grand
Testament

الحركة الاقتصادية ، وتنوع الوظائف وتعدد المهن ، ويشهد النزاع بين الطبقات : كنيويورك ولندن وباريس في العصر الحاضر ، وكبغداد في العصر العباسي .

وأهم أنواع اللهجات الاجتماعية ما يسمونه « باللهجات الحرفية » ؛ وهى اللهجات التى يتكلم بها فيما بينهم أهل الحرف المختلفة كالبرادين والنجارين والنقاشين والصيادين والبجارة وهلم جرا . وتميز اللهجات الحرفية بعضها عن بعض تميزاً كبيراً فى المناطق التى يسود فيها « نظام الطوائف » Regime des Castes حيث تختص كل طبقة بحرفة أو وظيفة خاصة تكون وفقاً على أفرادها لا يجوز لهم ولا لأعقابهم من بعدهم الاشتغال بغيرها ، كما لا يجوز لغيرهم الاشتغال بها : كما هو الحال فى كثير من بلاد الهند . على حين أنه فى الأمم الحديثة التى قضى فيها على نظام الطوائف ، فأصبحت الحرف حظاً مشاعاً بين جميع أفراد السكان ، يزاول كل منهم المهنة التى تروقه ، وينتقل إذا شاء من مهنة إلى أخرى ، وأصبحت الطبقات الاجتماعية غير واضحة الحدود ولا موصدة الأبواب على غير أهلها ، فى هذه الأمم تتداخل اللهجات الحرفية بعضها فى بعض ، ويتأثر بعضها ببعض ، وتقل بينها الفروق ، وتضعف المميزات .

* * *

هذا ، وقد خيل إلى بعض علماء « الإثنوجرافيا » أن اللهجات الاجتماعية لا تنشأ من تلقاء نفسها ، بل تخلق خلقاً ، وتبتدع بالتواضع والاتفاق بين أفراد الطبقة الواحدة ، وترتجل ألفاظها ومصطلحاتها ارتجالاً . وقد تابعهم فى هذا رأى بعض القدامى من علماء اللغة ؛ ولذلك لم تغل هذه اللهجات كبير حظ من عنايتهم .

وليس لهذه النظرية أى سند عقلى أو تاريخى . بل إن ما تقرره ليعارض مع النواميس العامة التى تسير عليها النظم الاجتماعية ؛ فعمدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالا ولا تخلق خلقا ؛ بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها . هذا إلى أن معظم هذه اللهجات منتشرة بين طبقات فقيرة جاهلة منحلة المدارك ضعيفة التفكير ، لا يتاح لملها أن تنشئ إنشاءً لغة كاملة المفردات متميزة القواعد ، بل لا يتاح لها مجرد التفكير فى مثل هذا المشروع الخطير : طبقات المتسولين والاصوص والحدادين والصيادين وهلم جرا .

والحق أن « اللهجات الاجتماعية » لا تختلف فى نشأتها عن « اللهجات المحلية » التى تكلمنا عنها فى الفقرات الثلاث الأولى من هذا الفصل . فكلا النوعين ينشعب عن اللغة الأصلية ويستمد منها أصول مفرداته ووجهة أساليبه وتراكيبه وقواعده ؛ وكلاهما تلقائى النشأة ينبعث عن مقتضيات الحياة الاجتماعية وشئون البيئة . وكل ما بينهما من فرق أن السبب الرئيسى لنشأة « اللهجات المحلية » يرجع إلى اختلاف الأقاليم وما يحيط بكل إقليم من ظروف وما يمتساز به من خصائص ؛ على حين أن السبب الرئيسى فى نشأة « اللهجات الاجتماعية » يرجع إلى اختلاف طبقات الناس فى الإقليم الواحد وما يكتنف كل طبقة منها من شئون ويفصلها بعضها عن بعض من مميزات فى شتى مظاهر الحياة .

غير أننا قد نعتز أحيانا فى بعض اللهجات الاجتماعية على مفردات لا أصل لها مطلقا فى لغة البلد ولا فى اللغات الأجنبية . ومفردات كهذه يغلب على الظن أنها قد اخترعت فى الأصل اختراعا من بعض الأفراد وانتشرت عن طريق التقليد . ولكن هذه الظاهرة تكاد تكون مقصورة

على لهجات الطبقات الراقية ، ولا تبدو إلا في عدد قليل من الكلمات .
أما معظم المفردات فترجع أصولها إلى كلمات منحدره من لغة البلد أو مقتبسة
من بعض لغات أجنبية . غير أن الغالب أن ينالها ، مع تقادم الزمن ،
كثير من التحريف والتغيير ، فتبعد بعداً كبيراً عن الأصل الذي أخذت
منه . وقد تصل في انحرافها هذا إلى درجة يخيل معها للباحث السطحي أنها
ابتدعت بالتواضع والارتجال . ولعل هذا هو ما حدا ببعض العلماء على الظن
بأن اللهجات الاجتماعية ناشئة عن تأليف واختراع ^(١) .

— ٦ —

اختلاف لهجة الرجال عن لهجة النساء

قد يحدث في بعض الشعوب التي يقل فيها اختلاط الرجال بالنساء ،
أو يعيش فيها كلا الجنسين بمعزل عن الجنس الآخر تحت تأثير نظم دينية
أو تقاليد اجتماعية ، أن تختلف لهجة الرجال عن لهجة النساء اختلافاً
يسيراً أو كبيراً .

وتكثر مظاهر هذا الاختلاف الغوى كلما استحكمت حلقات الانفصال
بين الجنسين ؛ حتى أنه لينشأ أحياناً من جراء ذلك لكل منهما لهجة
تختلف اختلافاً ينفرد عن لهجة الآخر ، أو تشتمل لهجة كل منهما على مفردات
وجمل كثيرة لا تستخدم في اللهجة الأخرى . وقد لوحظ ذلك في بعض

(١) يرجع الفضل في دراسة اللهجات الاجتماعية إلى طائفة من علماء اللغة وعلماء
الاجتماع . ومن أشهر من عني بدراستها من علماء الاجتماع فان جينيب V. Van
Gennep : Essai d'une théorie des Langues Speciales (Revue des Etude
éthnographiq et Sociologiques, juuein - juillet 1908)

الشعوب البدائية على الأخص^(١) .
ويخف هذا الاختلاف اللغوي كلما خفت قيود الاختلاط بين الجنسين؛
فتقتصر مظاهره على بعض فروق يسيرة في الأصوات والمفردات والجل
والأساليب ، كما هو مشاهد في كثير من المناطق المصرية في العصر الحاضر .
وليست هذه اللهجات في الواقع إلا نوعا من أنواع « اللهجات
الاجتماعية » التي تقدم الكلام عنها في الفقرة السابقة . فمعظم ما قلناه
هناك في نشأة اللهجات الاجتماعية وعواملها وتطورها . . . وما إلى ذلك
يصدق على هذا النوع .

(1) V. Durkheim : «La prohibition de l'inceste et ses origines
dans : «L'Année Sociologique T.I.P.49.

البَابُ الثَّانِي

نشأة اللغة عند الطفل

المشكلة كدائمية على الأخص (١)
 وبمقتضى هذا الاختلاف القوي كما تحت عبود الاندلاط بين الحسنيين
 فنفسر مظاهره على بعض فروق كبيرة في الأصوات والمفردات والمحل
 الأساليب كما هو متأكد في كثير من النطق المصرية في العصر الحاضر
 وأما هذه الأبحاث في الواقع إلا نوعاً من أنواع الأبحاث
 الاجتماعية التي تقدم الكلام على في الفقرة السابقة : فنعظم ملاحظنا
 هناك في نشأة الفروع الاجتماعية وعواملها وأصولها . وما إلى ذلك
 يتعلق في هذا النوع

الكتاب الثاني

الفصل الأول في مغلالات

(١) V. Durkheim : La prohibition de l'inceste et ses origines
 dans : L'Année Sociologique I 1912.

الفصل الأول

أنواع الأصوات والتعبير في الطفولة

— ١ —

أنواع الأصوات في الطفولة

يرجع أهم ما يلفظه الطفل من أصوات إلى الأنواع الآتية :

١ - « الأصوات الوجدانية » أو « أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعالات » . وهى الأصوات الفطرية التى تصدر من الطفل فى أثناء تلبسه بحالة انفعالية . كالأصوات التى تصدر منه فى حالات الخوف والألم والجوع والفرح والغضب والسرور والدهشة ، كالبكاء والضحك ومختلف أنواع الصراخ الوجدانى .

وهذا النوع فطرى عند الطفل ، يصدر منه بشكل غير إرادى وبدون سابق تجربة ولا تعليم ولا تقليد^(١) ، وتثيره الحالات الجسمية والنفسية أليها وسارها . وهذه الإثارة قائمة على روابط طبيعية تربط أعضاء الصوت بالحالات الجسمية والنفسية بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك بشكل آلى وتلفظ أصواتاً معينة عند وجود حالة من هذه الحالات . فالطفل إذ يلفظ هذه الأصوات تحت تأثير الحالة الجسمية أو النفسية أشبه شئ بساعة الحائط إذ تدق أجراسها بصوت آلى حينما تصل مشيراتها (عقاربها) إلى نقط خاصة ، وتختلف دقاتها نوعاً وكمية باختلاف هذه النقط .

(١) ليس أدل على أن هذا النوع فطرى وعلى عدم توقفه على المحاكاة أنه يظهر حتى عند الطفل الذى يولد أصم .

ويتألف هذا النوع من أصوات مبهمه (تشبه أصوات الحيوان وأصوات مظاهر الطبيعة) وأصوات لين (وهي التي ترمز إليها بحروف المد) مختلطة أحياناً ببعض أصوات ذات مقاطع (وهي التي ترمز إليها بالحروف الساكنة). وقد حاول العلامة شترن Stern ، على ضوء ما قام به في هذا الصدد من ملاحظات وتجارب ، أن يعين نوع الصوت الذي يظهر في كل حالة من الحالات الانفعالية المشار إليها ؛ فأنتهى بحثه إلى نتائج كثيرة منها أن حروف اللين مكررة تعبر عن السرور والحزن ، وإن الميم والنون تعبران عن كل ماله علاقة بالأمور الداخلية (الجوع الرغبة .. الخ) ، وأن الباء والdal والتاء تعبر عن كل ماله علاقة بالعالم الخارجي . — غير أن التحقق من صحة هذه النتائج يحتاج إلى استقراء كبير يتعذر إجراؤه . هذا إلى أن كل ما يقال بهذا الشأن تقريبي ؛ لأن الأصوات التي نحن بصدد الكلام عليها يتألف معظمها ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، من أصوات مبهمه يصعب تحديد ما يشبهها من أصوات اللغة .

هذا ، ويصحب انفعالات الطفل كذلك طائفة من المظاهر الجسمية المريئة كصفرة الوجه وحرته ووقوف شعر الرأس وضيق الحدة واتساعها وفتح الفم وانقباض عضلات الوجه وانبساطها وفتح الأسارير وانكماشها... وهلم جراً . وهذه المظاهر قائمة على نفس الأسس الطبيعية القائمة عليها الأصوات الوجدانية ، وتصدر دائماً مصاحبة لهذه الأصوات . فهي فطرية غريزية تصدر من الطفل بدون سابق تجربة وتعليم ويشيرها بطريقة آلية ما يتلبس به الطفل من انفعال .

٢ — « الأصوات الوجدانية الإرادية » . — وهي أصوات النوع السابق حينما يستعملها الطفل استعمالاً إرادياً . وذلك أن الأصوات الوجدانية

الفطرية التي تقدمت الإشارة إليها يدرك المحيطون بالطفل مصادر هاومثيراتها فيعملون على وقفها بتحقيق مايعوز الطفل وقضاء ما يحتاج إليه . ومن تكرار سلوكهم هذا ، يدرك الطفل أن هذه الأصوات من شأنها أن ترغم المكبار على تحقيق رغباته ، فيلفظها أحياناً بشكل إرادى قاصداً بها التعبير عن حالة قائمة به أو عن مطلب من مطالبه . فتراه مثلاً يعتمد البكاء أو الصراخ أو يتنادى فيهما بشكل إرادى حتى تحمله مربيته أو ترضعه أو تبعد عنه هنة لا يريد ها . . . وهلم جراً . - وتسمى حينئذ هذه الأصوات « بالأصوات الوجدانية الإرادية » .

وما يتخذة حيال الأصوات يتخذة أحياناً حيال الحركات الجسمية المعبرة عن الانفعالات . فقد يقوم ببعض هذه الحركات بشكل إرادى قاصداً بها التعبير عما يساوره من انفعال أو يرغب تحقيقه من رغبة . فقد يعتمد مثلاً تقطيب وجهه أو تحريك يديه حركات عنيفة للتعبير بشكل إرادى عن غضبه ، وقد يعتمد قبض عضلات الوجه للتعبير عن كراهته لشيء أو شتمزازه منه . . . وهلم جراً .

وهو فى الحالين (حالة الصوت الإرادى وحالة الحركات الإرادية) يحاكي نفسه فى حالتها الطبيعية الفطرية ، فيمثل بشكل إرادى ما يصدر عنه عادة بشكل آلى فطرى .

٣ - « أصوات الإثارة السمعية » . - وهى أصوات فطرية غير تقليدية تصدر من الطفل فى شهوره الأولى حينما يسمع بعض الأصوات . ففى هذه المرحلة نرى أن سماع الطفل لبعض الأصوات (وبخاصة الأصوات المرتفعة) يثير أعضاء صوته ويجعلها تلفظ بشكل آلى أصواتاً غير تقليدية (أى لا تحاكي الأصوات المسموعة) شبيهة بأصواته الوجدانية التى أشرنا

إليها فيما سبق — ويحدث هذا عند سماعه أحداً المحيطين به يناغيه أو يتحدث بصوت مرتفع أو عند سماعه صوت حيوان أو آلة موسيقية ... وهلم جراً. ويظهر هذا النوع من الأصوات لدى الطفل في سن مبكرة. وقد لاحظ الأستاذ « جويوم Guillaume » أن ابنه « بول » ، ولما يتجاوز الشهر الثاني ، تصدر منه هذه الأصوات عندما تكلمه أمه أو يكلمه هو بعبارات طويلة ، وأنه عندما بلغ الشهر الثالث كان صوت « البيانو » يشير أعضاء نطقه فتلفظ أصواتاً مبهمه لا تحاكي في شيء النغم الموسيقي الذي يسمعه ؛ وأن بنته « لويز » ، وسميها شهران ونصف ، كانت الأصوات التي تلفظها في أثناء مناغاته لها أشبه شيء بإجابات على حديثه ؛ فكانت تلفظ هذه الأصوات كلما توقف هو عن الحديث أو انتهت عبارة من عباراته ، وأن حالتها كانت شبيهة بحالة شخصين يتحدثان محادثة منظمة. — وقد لاحظت هذه الظاهرة نفسها على ابنتي عفاف في سن مبكرة. ففي اليوم الثاني من شهرها الثالث (٢٧/٣/٣٤) أثارت مناغاتي لها أعضاء نطقها فأخذت تلفظ أصواتاً مبهمه مصحوبة بالابتسام وحركات الأطراف .

ومن هذا النوع من الأصوات ما يسمونه « العدوى الصوتية » التي تبدو عند الأطفال إذا ضمهم مكان واحد والتي تلازمهم في معظم مراحل طفولتهم: يصوت الوليد منهم فيشير صوته أصوات زملائه ؛ ويبكي أحدهم فيبكي لمكائه الآخرون ^(١) .

ويتألف هذا النوع ، كما يتألف النوعان السابقان ، من أصوات مبهمه (تشبه أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة) وأصوات لين (وهي التي نرمز

(١) وقد لاحظ الأستاذ « بلاتون » أن هذه العدوى الصوتية لا تظهر قبل نهاية الشهر الأول .

إليها بحروف المد) مختلطة أحيانا ببعض أصوات ذات مقاطع (وهي التي نرسم إليها بالحروف الساكنة).

وقد ثبت أن هذه الأصوات ليست إرادية ولا تقليدية، بل فطرية آلية تصدر بدون تدخل إرادة الطفل ولا تتجه إلى محاكاة أمر ما. وهي قائمة على أسس طبيعية شبيهة بالأسس القائمة عليها الأصوات الوجدانية. فكما أن تلبس الطفل بحالة انفعالية يثير أعضاء صوته، فتتحرك بشكل آلي وتلفظ الأصوات الوجدانية السابق ذكرها؛ كذلك سماع الطفل في هذه المرحلة لبعض الأصوات، فإنه يثير أعضاء نطقه فتتحرك بشكل آلي وتلفظ الأصوات التي نحن بصدد الكلام عنها. فكلما النوعين فطري آلي قائم على روابط طبيعية. وكل ما بينهما من فرق ينحصر في أن الأول مؤسس على روابط طبيعية تربط أعضاء الصوت بحالات الجسم والنفس بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك بشكل آلي وتلفظ أصواتا خاصة عند وجود حالة من هذه الحالات؛ على حين أن الثاني قائم على روابط طبيعية تربط جهاز السمع بجهاز الصوت بطريقة تجعل أعضاء الجهاز الثاني تتحرك بشكل آلي وتلفظ أصواتا مبهمه عند وصول أصوات إلى الجهاز الأول.

٤ — «أصوات التمرينات النطقية» Exercices vocaux أو «اللعب

اللفظي» jeu vocal أو «اللفظ» Babillage.

يظهر لدى الطفل حوالي الشهر الخامس ميل فطري إلى اللعب بالأصوات وتمارين أعضاء النطق. فيقضي فترات طويلة من وقته في إخراج أصوات متنوعة عارية عن الدلالة وعن قصد التعبير. — وقد سمي

الباحثون هذا النوع من الأصوات بالتمرينات النطقية أو اللعب اللفظي أو اللغظ (١).

وينتظم هذا النوع جميع الأصوات المدية والمقطعية (حروف اللين والحروف الساكنة) التي يمكن أن تلفظها أعضاء النطق الإنساني. ولذلك كثيراً ما نجد من بينها أصواتاً غريبة عن اللغة التي ينطق بها آباء الطفل. فكثيراً ما يرد فيما يلفظه أطفالنا المصريون من هذا النوع أصوات لا وجود لها في لغتنا، كالأصوات التي يرمز إليها في الفرنسية بهذه الحروف v, p, g, eu.

وقد لاحظ الأساتذة رونجات وميرينجير وجوتمان Ronjat, Meringer, Gutzman أن من بين الأصوات التي يلفظها أطفال الأوروبيين في هذه المرحلة أصواتاً لا يوجد لها نظير إلا في لغات الصين، أو اليابان، أو في رطانات زنج أفريقية، أو في لهجات السكان الأصليين لأمريكا وأستراليا. ومن ثم يظهر فساد ما ذهب إليه فونت وپريرومور Wundt, Preyer, Moor إذ زعموا أن أصوات هذه المرحلة تختلف باختلاف الشعوب، وأن أطفال كل أمة لا يلفظون في أثنائها إلا الأصوات الخاصة بلغة بلادهم، أي التي سيستخدمونها في المرحلة التالية، فكأنهم بذلك يدربون أعضاء نطقهم على ما ستواجهه في المستقبل من مشكلات لغوية خاصة.

وبلاحظ أن الطفل في هذه المرحلة يولع بتكرار الصوت الذي يلفظه من هذا النوع عدة مرات: با با با - تا تا تا أيتا... الخ: ويرجع

(١) قد يظهر هذا النوع من الأصوات عند بعض الأطفال قبل الشهر الخامس، فقد لاحظته عند ابنتي عقاف في أوائل الشهر الثالث (ابتدأ ظهوره لديها يوم ٢٧ - ٣ - ٣٤)، وظهر عند ابني إقدام في أوائل الرابع (ابتدأ ظهوره لديه يوم ١٢ - ٧ - ٤٠)، وقد ولد يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٤٠.

هذا إلى أسباب كثيرة . منها أن النشاط الحركي يتجه دائماً إلى الأشكال المتماثلة والأوضاع المتشابهة . ومنها أن وقف الحركة فجأة يتطلب مجهوداً أكبر من المجهود الذي يتطلبه استمرارها ؛ فالطفل بتكراره هذا يميل بفطرته إلى أخف المجهودين (وإلى هذا يرجع السبب في حدوث هذه الظاهرة نفسها عند الكبار أحياناً وخاصة حينما يسرعون في كلامهم) . ومنها أن الطفل عند ما يلفظ صوتاً ما يحدث لديه هذا الصوت إحساساً سمعياً يرتاح إليه ويتلذذ بوقعه ، فيكرر الصوت لمتكرراً إحساسه هذا ، كما أن إحساسه صوت طبله دقها بيده أو صوت هنة رماها يدعوه إلى تكرار الدق والرمي لمتكرراً نفس الصوت ؛ وهذا مظهر من المظاهر التي أطلق عليها العلامة بلدوين « تقليد الطفل لنفسه » أو « التفاعل الدائري عند الطفل » . — وتبقى هذه العادة عند الطفل في أوائل المرحلة التالية كما سنذكر ذلك في موطنه (١) .

ولا يرمى الطفل من وراء هذه الأصوات إلى محاكاة أو تعبير ، وإنما تدفعه إليها غرائزه دفعا كما تدفعه إلى سائر ألعابه ، ويجد لذة كبيرة في مجرد لفظها كما يجد لذة في القيام بألعابه الأخرى .

ويظهر أن الغرض الذي ترمى إليه الطبيعة من دفع الطفل إلى هذا النوع من الألعاب هو تدريب أعضائه نطقه على القيام بوظائفها العامة وإعدادة إعداداً تاماً للمرحلة التالية وهي المرحلة التي يأخذ فيها اللغة عن طريق محاكاته لما يسمعه من المحيطين به (٢) .

(١) انظر الفقرة الثالثة من الفصل الثاني من هذا الباب .

(٢) انظر تفصيل هذا بكتابنا « في التربية » صفحات ٣١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ . والغرض الذي أشرنا إليه وهو الإعداد للحياة المستقبلية ليس مقصوراً على الألعاب اللفظية بل مشتركاً في جميع الألعاب الإنسانية .

غير أنه يظهر كذلك أن بعض الأصوات التي يلفظها الطفل في أواخر هذه المرحلة والتي تبدو من نوع «التمرينات النطقية» هي في الحقيقة أصوات تقليدية يحاول بها الطفل أن يحاكي ما يسمعه من كلمات فيلفظها لفظاً خاطئاً بعيداً كل البعد عن الأصل ، أو يحاول بها محاكاة النبرات العامة التي تتألف منها الصورة الموسيقية لبعض ما يسمعه من عبارات . ولأدل على ذلك مما لاحظته الأستاذ جرامون Gramont الفرنسي . فقد اختار لابنه مربية إيطالية ظلت ملازمة له حتى قبيل انتهاء هذه المرحلة . وبعد شهر تقريباً من انقطاعها عنه ، دخل الطفل في مرحلة التقليد اللغوي . فلاحظ والده حينئذ أنه يلفظ الكلمات الفرنسية بلهجة إيطالية ، وأن هذه العادة لم يتخلص منها إلا بعد أمد طويل . وهذا يدل على أن بعض الأصوات التي كان يلفظها في مرحلة «التمرينات النطقية» إذ كانت مربيته الإيطالية تفاعيه بلهجتها ، كان يحاول بها تقليد النبرات العامة لحديثها ، وأن هذه المحاولات قد مكنت أسلوب الصوت الإيطالي من لسانه ، وظهرت آثار ذلك في حديثه فيما بعد .

٥ - الأصوات التي يحاكي بها الطفل أصوات الأشياء والحيوانات (هزيز الريح ، حفيف الشجر ، خرير الماء ، جمجمة الرحي ، صرير الباب ، درداب الطبل ، طنطنة الأوتار ، دقات الساعة ، نفير السيارة - صهيل الفرس ، نهيق الحمار ، خوار البقر ، نغاء الغنم ، نباح السكب ، مواء الهر ، صياح الديك ، هديل الحمام ، نقيق الغراب ... وهلم جرا) .

وتعتمد هذه الأصوات على استعداد فطري عند الطفل ، وهو غريزة المحاكاة . ولكنها ، مع ذلك ، تصدر بشكل إرادي . ويرى الطفل من

ورائها إلى غايات معينة . فهو يرمى أحيانا إلى مجرد التلذذ بالحركة أو إثبات قدرته على التقليد ، وأحيانا إلى التعبير عن أمور تتصل بالشئ أو الحيوان الذى يحاكي صوته ، كأن يحاكي صوت الكلب للتعبير عن رغبته فى رؤيته أو عن قدومه . . . وما إلى ذلك . وهو يحاكي أحيانا هذه الأصوات المبهمه فى صورتها الطبيعية ، وأحيانا يحاكيها بوضعها فى أصوات ذات مقاطع ، فيعبر عن صوت الدجاجة مثلا بكلمة « كاك » وعن صوت الكلب بكلمة « هو » . . . وهلم جرا .

٦ — الأصوات المركبة ذات المقاطع والدلالات الوضعية التى تتألف منها الكلمات وتتكون منها اللغة .

وهذا النوع من الأصوات يأخذه الطفل عن المحيطين به بطريق التقليد ، ويندفع إليه تحت تأثير ميله الفطرى إلى المحاكاة . ولكنه ، مع ذلك ، إرادى فى تكوينه وفى استخدامه . أما فيما يتعلق بتكوينه ، فهو لا يصدر من الطفل بشكل آلى كما تصدر أصواته الوجدانية مثلا ؛ بل يبذل الطفل فى إصداره وإصلاح خاطئه وتكملة نقصه وجعله مطابقا للصوت الذى يحاكيه . . . مجهوداً إرادياً ويشرف على جميع هذه الأمور إشرافاً مقصوداً . وأما فيما يتعلق باستخدامه ، فإن الطفل يلفظه مريداً به التعبير عن المعانى والحقائق التى يدل عليها . وذلك أن هذه الطائفة من الأصوات لا تنتقل إلى الطفل مجردة ، بل تنتقل إليه حاملة معها معانيها . فهو يدرك ما تدل عليه من سياق أعمال المتكلمين بها ومن الحركات اليدوية والجسمية التى تصحبها ومن الإشارة الحسية إلى مدلولاتها . . . وهلم جرا . فيحاكيها متصوراً معانيها تصوراً كاملاً أو ناقصاً تبعاً لمبلغ الدقة فى ملاحظته . وكما

١ اكتسب لفظاً منها عن هذا الطريق احتفظ به إلى حين الحاجة إليه ؛ فيلغظه
كلما أراد التعبير عن مدلوله (١) .

— ٢ —

أنواع التعبير في الطفولة

عرضنا في الفقرة السابقة لجميع أنواع التعبير في الطفولة ما عدا نوعاً
واحداً لم تدع إلى الكلام عنه مناسبة ما في الموضوع السابق ، وهو التعبير
الإرادي عن المعاني عن طريق الإشارات اليدوية والجسمية . وإلى هذا
النوع من التعبير يلجأ الطفل في جميع مراحل طفولته ؛ فيستخدمه أحياناً
مستقلاً عن غيره (كأن يمد يده ويفتح كفه للتعبير عن رغبته في الحصول
على شيء ما ، أو يمد يده نحو شخص ويقبض أصابعه ويسطها للتعبير عن
رغبته في محيئه بجانبه ، أو يقبض أصابعه ويقربها من شفثيه محاكياً حركة
الشرب للتعبير عن حاجته إلى الماء ، أو يهوى بيده بحركة عنيفة للتعبير عن
الضرب . . . وهلم جرا) ؛ وأحياناً يستخدمه مع الكلام لتبكية ما ينقص
حديثه ويعوزه من دلالة أو لتوكيد المعاني وتمثيل الحقائق وزيادة التوضيح .
وبإضافة هذا النوع إلى الأنواع التي عرضنا لها في الفقرة السابقة ،
يتبين أن مظاهر التعبير في الطفولة ترجع إلى سبعة أقسام :

١ — التعبير الطبيعي عن الانفعال عن طريق الأصوات ؛

٢ — التعبير الطبيعي عن الانفعال عن طريق الحركات الجسمية ؛

(١) هناك نظريات أخرى كثيرة في الأساس القائم عليه هذا النوع من الأصوات
وسنعرض لها في الفصل الخامس من هذا الباب .

٣ — التعبير الإرادى عن الانفعال عن طريق محاكاة النوع الأول؛

٤ — التعبير الإرادى عن الانفعال عن طريق محاكاة النوع الثانى؛

٥ — التعبير عن المعانى عن طريق محاكاة أصوات الحيوان ومظاهر

الطبيعية؛

٦ — التعبير عن المعانى عن طريق اللغة (الجل والكلمات)؛

٧ — التعبير عن المعانى عن طريق الإشارات اليدوية والجسمية .

ومجمل هذا أن التعبير فى الطفولة لا يخرج عن طائفتين : تعبير عن

الانفعالات ، وتعبير عن المعانى .

أما التعبير عن الانفعالات فيكون أحياناً طبيعياً وأحياناً إرادياً

يُحاكى فيه التعبير الطبيعى ؛ وكلاهما يكون عن طريق الصوت أو عن

طريق الحركة .

وأما التعبير عن المعانى فلا يكون إلا إرادياً ، ويحدث أحياناً عن

طريق الإشارة اليدوية أو الجسمية ، وأحياناً عن طريق محاكاة أصوات

الحيوانات والأشياء ، وأحياناً عن طريق اللغة .

(١) — ٥٦٦ — ٥٦٧ .

(٢) — ٥٦٦ — ٥٦٧ .

الفصل الثاني

المراحل التي يجتازها الطفل

في أصواته وتعبيراته

يجتاز الطفل في هذه السبيل أربع مراحل تمتاز كل مرحلة منها بمميزات خاصة في أصواته وتعبيراته ، وسنقف على كل مرحلة من هذه المراحل فقرة على حدة .

- ١ -

المرحلة الأولى: من الولادة إلى الشهر الخامس

وفي هذه المرحلة لا يظهر من أنواع الأصوات الستة السابق ذكرها إلا الأنواع الثلاثة الأولى « الأصوات الوجدانية » و « الأصوات الوجدانية الإرادية » و « أصوات الإنارة السمعية »^(١) .

أما تعبيرات الطفل في هذه المرحلة فتنتظم جميع أنواع التعبير السابق^(٢) ذكرها ماعدا النوعين الخامس والسادس (التعبير عن المعاني عن طريق

(١) انظر صفحات ١١٥ — ١١٩ .

(٢) انظر صفحتي ١٢٤ — ١٢٥ .

اللغة ، والتعبير عن المعانى عن طريق محاكاة أصوات الحيوان والأشياء) .

فيبدو لديه في هذه المرحلة التعبير الطبيعي عن الانفعال في مظهره الصوتي والحركي (البكاء، الصراخ، الضحك - الابتسام، انقباض الأسارير وانبساطها، احمرار الوجه، اصفراره، ارتعاش الجسم، وقوف شعر الرأس... وهلم جرا). - وتختلف هذه التعبيرات في موعد ظهورها، فأول ما يظهر من أنواعها الصوتية هي الأصوات الدالة على الألم الجسمي وعن الجوع... وما إلى ذلك؛ ثم تظهر بعد ذلك (في أواخر الشهر الثانى تقريباً) الأصوات المعبرة عن الألم النفسى كأصوات الحزن والإخفاق وضيق الصدر...؛ أما الأصوات المعبرة عن الحالات السارة جسميها ونفسيها كالفرح والطمأنينة والارتواء والشبع فلا تبدو إلا في منتصف هذه المرحلة أو في أواخرها. - وتسير التعبيرات الحركية في مواقيت ظهورها على سنن قريب من سنن التعبيرات الصوتية.

ويبدو لدى الطفل كذلك في هذه المرحلة مظاهر «التعبير الوجداني الإرادى». فكثيراً ما يعتمد الصبي في شهوره الأولى محاكاة تعبيره الطبيعي ليقف المحيطين به على حالة وجدانية متلبس بها أو ليحملهم على تحقيق رغبة من رغباته (بتعمد مثلاً الصراخ أو البكاء ليقضى له مطلب ما).

ويبدو لديه كذلك في أواخر هذه المرحلة بعض مظاهر من التعبير عن المعانى عن طريق الإشارة. فكثيراً ما يلجأ إلى الإشارات اليدوية والجسمية للتعبير عما يهيمه التعبير عنه. كأن يمد يده ويضم أصابع كفه للإشارة إلى شخص بالدنو منه، وكأن يدفع شخصاً بيده للتعبير عن رغبته في أن يبعد عنه... وهلم جرا.

المرحلة الثانية : من الشهر الخامس إلى أواخر السنة الأولى

وتتميز هذه المرحلة عن المرحلة السابقة من الناحية الصوتية بظهور نوع رابع من الأصوات وهي أصوات «التمرينات النطقية» أو «اللعب اللفظي» أو «اللفظ» التي تكلمنا فيما سبق عن طبيعتها ووظائفها وأسسها (١). ويتألف معظمها في المبدأ من أصوات ليثة (حروف مد) . ثم تكثر فيها بعد ذلك الأصوات ذات المقاطع (الحروف الساكنة) . وقد تظهر لديه في هذه المرحلة بعض أصوات يحاول بها محاكاة ما يسمعه في صورة ما كما تقدم بيان ذلك (٢).

أما فيما يتعلق بأنواع التعبير ، فلا يظهر منها لدى الطفل في هذه المرحلة أى نوع جديد . ولكن ترقى لديه الأنواع القديمة التي تكلمنا عنها في المرحلة السابقة ، وبخاصة الإرادى منها . فتكثر محاكاته الإرادية لوسائل التعبير الفطرى ، وتتهذب طرق تعبيره بالإشارة ، ويتسع نطاقه ، وتضبط دلالاته .

وفي هذه المرحلة ، بل من قبل هذه المرحلة ، يخزن الطفل في ذاكرته كثيراً من الكلمات والجمل التي ينطق بها المحيطون به ويفهم مدلولها بدون أن يستطيع محاكاتها . ويساعده على فهمها سياق أعمال المتكلمين وما يصدر عنهم في أثناء النطق بها من حركات يدوية وجسمية وإشارات إلى ماتدل عليه . فإذا كلف الطفل في هذه المرحلة أمراً ما (اقفل الباب ، هات الكوب ، ضع لعبتك في العربة . . . الخ) أو طلب إليه الإشارة إلى أحد

(١) انظر صفحات ١١٩ — ١٢٢ . وقد يظهر هذا النوع من الأصوات عند بعض الأطفال قبل الشهر الخامس كما سبقت الإشارة إلى ذلك بالتعليق الأول ص ١٢٠ .
(٢) انظر صفحة ١٢٢ .

أعضائه أو أعضاء غيره أو إلى هنة ما (أين أنفك ، فك ، أذنك ، أبوك ، أمك ، عمك ، سريرك ، لعبتك . . .) ، أدى ما كلفه وأشار إلى ما يطلب إليه تعيينه من أعضاء وأشياء في صورة تدل دلالة قاطعة على فهمه لما سمع .
وقد ذكر الأستاذ بريير Preyer أن النطق الواضح بالكلام لم يبدأ عند ابنه إلا في الشهر الثامن عشر ؛ مع أنه ، منذ الشهور الأخيرة من السنة الأولى ، كان يفهم معظم ما يقال له وما يسمعه .

وذكر الأستاذ جو يوم أن ابنته «لويز» كانت تفهم معنى كلمة «بابا» منذ الشهر الثالث ، مع أنها لم تستطع النطق بها إلا في الشهر السابع ؛ وأن ابنه بول كان في شهره الرابع يفهم معاني الكلمات الآتية : «بابا ؛ بول (اسمه) ؛ ندى» ؛ وفي شهره الخامس كان يفهم كذلك معاني كلمتي «ماما» و«أخيه الأكبر» ، مع أنه في هذه المرحلة ما كان يستطيع النطق بأية كلمة من هذه الكلمات ؛ وأن نطاق الفهم عند ولديه هذين قد اتسعا اتساعا كبيرا في الشهور الأولى من مرحلة «التمرينات النطقية» ؛ فكان الولد منهما يلوح بيديه تلويح الوداع عندما يقال له Adieu (مع السلامة) كما يلوح الكبار بأيديهم عندما يسمعون هذه الصيغة من مودعيتهم ؛ ويحاول أن يلبي ما يطلب إليه أداؤه بالقدر الذي تسمح به قواه الجسمية وقدرته على الحركة عند ما يطلب إليه أن يرقص أو يجلس أو يقف أو يجيء . . . وهلم جرا ؛ ويلبي تلبية صحيحة ما يؤمر به إذا طلب إليه تقبيل أحد أبويه أو الأخذ بلحمة والده أو شد شعر رأسه ؛ ويشير إلى الشخص أو الهنة التي يطلب إليه الإشارة إليها إذا قيل له : أين أبوك أوريغوند (أخوه) أو الهرة أو الدجاجة أو الندى أو المدفأة أو السرير . . . وما إلى ذلك ؛ مع أنهما في هذه المرحلة ما كانا يستطيعا النطق بأية بكلمة ولا عبارة من هذه الكلمات والعبارات .

وقد لاحظت على ابنتي عفاف ، وهي في أوائل شهرها السادس ، أنها كانت تفهم معنى كلمة « بوبول » (اسم كنا نطلقه على هرة بالمنزل) . فكانت كلما ذكر أمامها هذا الاسم صوبت نظرها نحو الأرض وأدارته في نواح كثيرة لتبحث عنها ، فإن عثرت عليها حدثت فيها وتابعت حرركاتها بنظرها . مع أنها في هذا الدور ما كانت لتستطيع النطق بكلمة ما .

هذا ، وفهم الطفل للكلمات والجمل يظهر على صورة تدريجية . وأول كلمات يفهم مدلولها هي الكلمات الدالة على أكثر الأشخاص ملازمة له وأحبهم إليه (بابا ، ماما ، دادة ... الخ) وعلى الأمور الضرورية له (أمبو = الماء ؛ مم = الطعام ... الخ) وعلى الأشياء التي تستأثر بانتباهه لغرابتها مثلاً . فقد كانت كلمة طيارة من الفوج الأول من الكلمات التي لاحظت أن ابني إقداما يفهم مدلولها (ظهر فهمه لمدلولها في أوائل شهره العاشر) . فقد كنا نجلس به في حديقة المنزل ، فتحلق بعض الطائرات فوق رؤوسنا محدثة دويًا مزعجًا . فاستأثر هذا بقسط كبير من انتباهه وتمكن معنى الكلمة في ذهنه . فكنا إذا سألناه في وقت لا طائرة فيه فوق رؤوسنا : « فين الطيارة ياميمي » = أين الطائرة يا إقدام » رفع بصره إلى السماء كمن يبحث عنها .

للمرحلة الثالثة : مرحلة التقليد اللغوي

تبدأ هذه المرحلة عند العاديين من الأطفال في أواخر السنة الأولى أو أوائل الثانية ؛ وتنتهي في الخامسة أو السادسة أو السابعة . أما غير العاديين

من الفاحية اللغوية فقد لا تبدأ لديهم إلا في أواخر الثانية أو أوائل الثالثة ، ويتأخر تبعاً لذلك موعد انتهائها . وعند بعض الشواذ من الأطفال لا تبدأ إلا في سن متأخرة جداً ، كما سندكر ذلك في الفصل الثالث من هذا الباب . وقد تبدأ في حالات نادرة في سن مبكرة جداً . فقد سجل سكوبن Scupin بعض شواهد لها حدثت في الشهر الثاني ، ولا حظ مثلها جو يوم وشرن في الشهر الثالث ، ودارون في الشهر الرابع . ولكن ظهورها في مثل هذه السن نادر جداً ، والشواهد التي تذكر من هذا القبيل غير موثوق بصحتها كل موثوق .

وفي هذه المرحلة يظهر النوعان الخامس والسادس من أنواع الأصوات السابق ذكرها (محاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة بقصد التعبير عن مصادرها أو عن أمور تقتضيهما ، ومحاكاة الكلمات بقصد التعبير عن مدلولاتها) .

ويظهر هذين النوعين من الأصوات يظهر نوعان جديداً في تعبير الطفل : التعبير عن المعاني عن طريق محاكاة الأصوات الحيوانية وأصوات الأشياء ، والتعبير عن المعاني عن طريق محاكاة الأصوات اللغوية (أي عن طريق اللغة) .

وتسير المحاكاة في هذه المرحلة على أساليب خاصة بعضها يتعلق بالأصوات وبعضها يتعلق بالدلالة . وسنتكلم على كل منهما على حدة :

(أولاً) الأساليب المتعلقة بالأصوات ، ومن أهمها مايلي :

١ - أن الطفل يحاكي في مبدأ الأمر الكلمات التي يسمعها محاكاة خاطئة ، ولا يزال يصلح من فاسد نطقه شيئاً فشيئاً ، مستعيناً بالتكرار ومعتمداً

على مجهوده الإرادى ومستفيداً من تجاربه ، حتى تستقيم له اللغة .

ومظاهر أخطائه في هذه الناحية كثيرة من أهمها مايلي :

(١) أنه يغير الأصوات فيحل محل الصوت الأصلي صوتاً آخر قريباً منه في المخرج أو بعيداً عنه (ويقلب أن يكون قريباً منه) ؛ فينطق مثلاً الكاف تاء (تتاب = كتاب ؛ الستينه = السكينة ... الخ) ، والشين سيناً (سعر = شعر ... الخ) ، والفاء باء (بيبي = فيفي ... الخ) ، والعين أو الخاء همزة (نشاة = نعاعة ؛ نأى = نعم ؛ أد = خد) ، واللام نوناً (نمنة = نملة) ... وهلم جرا . وقد ينال هذا التغير معظم حروف الكلمة ، فلا يكاد يبقى فيها شيء من أصواتها الأصلية (ساساته = شوكلاته^(١)) .

ويظل هذا النوع من الخطأ ملازماً للطفل حتى أواخر هذه المرحلة .

فقد لازم ابنتى عفاف حتى أواخر سنتها الخامسة ؛ فظلت في أثناء هذه السنة تجد بعض الصعوبة في النطق بالشين وتميل إلى قلبها سيناً (وكان هذا آخر مظهر لديها من مظاهر الخطأ الذى نحن بصددده) . ولا تزال مظاهره كثيرة في لغة ابنتى إقدام ، مع أن سنه الآن (٣٠ / ٧ / ٤٦) ست سنين إلا ستة وعشرين يوماً . وكثيرة جداً في لغة ابنتى حزم ، مع أن سنها الآن أربع سنين وتسعة أشهر وأربعة عشر يوماً .

غير أن نوع الحروف التى يغالها التغير وكميتها ... كل ذلك يختلف باختلاف السن .

(ب) أنه يحرف أصوات الكلمة عن مواضعها ، فيجعل اللاحق منها سابقاً والسابق لاحقاً .

(١) كل هذه الكلمات مأخوذة من لغة ابنتى عفاف في هذا الدور . وفيفى هو الاسم الذى كنا نناديها به فى المنزل .

ويلازمه هذا النوع من الخطأ مدة طويلة . فلم تتحرر منه ابنتي عفاف إلا في أواسط السنة الرابعة . ففي الشهر الخامس من سنتها الرابعة كانت لاتزال تقول « إمسو » بدل اسمو (اسمه) ، و « جمزة » بدل جزمة (حذاء) ، و « أحبسوا » بدل أحسبو (أحسبه) وهلم جرا . ولم يتحرر منه ابني إقدام إلا بعد أن أتم سنته الرابعة ؛ ومن مظاهره لديه « إمسو » بدل اسمه ، و « جمزة » بدل جزمة ، « حمز » بدل حزم ، (اسم أخته الصغيرة) .

(ح) لا ينطق بجميع أصوات الكلمة بل يكتفى بلفظ بعضها (تت = تحت ، دى = منديل . . . الخ) .

وترجع هذه الأخطاء الصوتية جميعها إلى ضعف أعضاء النطق عند الطفل في مبدأ هذه المرحلة ، وضعف إدراكه السمعي وذاكرته السمعية ، وقلة المران ، وتأثر عناصر الكلمة بعضها ببعض . . . وهلم جرا . وكلما تقدمت به السن واشتدت أعضاء صوته ودقت حاسة سمعه وقويت ذاكرته حسن نطقه وقلت أخطاؤه . ويعينه في هذا السبيل ما يبذله المحيطون به من جهود لإصلاح نطقه ، إذ يكررون له الكلمة عدة مرات ، أو ينطقونها على مهل متميزة الحروف ، أو ينطقونها بصوت مرتفع . . . وما إلى ذلك .

وإلى الأخطاء السابقة وما إليها يرجع السبب في صعوبة فهم حديثه على غير المحيطين به . وقد خيل إلى بعض الباحثين أن الطفل يخترع اختراعا بعض كلمات في مبدأ هذا الدور . والحق أن الطفل لا يأتي بجديد من عنده ، وأن الكلمات التي يظن أنها من اختراعه ترجع جميعها إلى كلمات تقليدية : فبعضها محاكاة محرفة كثرت فيها الأخطاء السابق ذكرها حتى بعدت عن

أصلها بعداً كبيراً؛ وبعضها محاكاة صحيحة لكلمات يتعمد بعض الملازمين للطفل أن ينطقوا بها نطقاً محرفاً يتفق مع طريقة نطقه: فهذه الكلمات هي من اختراع الكبار لا من اختراع الطفل.

٢ - يولع الطفل في مبدأ هذه المرحلة بما كان مولعاً به في المرحلة السابقة من تكرار المقاطع والكلمات عدة مرات (بابابابا = بابا أبى الوالد، ماماماما = ماما أبى الأم . . . وهكذا معظم الكلمات). وهذا راجع إلى أسباب كثيرة. منها أن الطفل يحاول بذلك أن يثبت الكلمة في ذاكرته ويمكن لها من أعضاء نطقه حتى يسهل عليه حفظها والنطق بها فيما بعد عند الحاجة إليها. ومنها أن النشاط الحركي يتجه دائماً إلى الأشكال المتماثلة والأوضاع المتشابهة. ومنها أن وقف الحركة فجأة يتطلب مجهوداً أكبر من المجهود الذي يتطلبه استمرارها؛ فالطفل بتكراره هذا يميل بفطرته إلى أخف المجهودين (و إلى هذا يرجع السبب في حدوث هذه الظاهرة نفسها عند الكبار أحياناً وخاصة حينما يسرعون في كلامهم). ومنها أن الطفل المبتدئ في الكلام عندما يلفظ كلمة ما، يحدث لديه صوتها إحساساً سمعياً يرتاح إليه ويتلذذ بوقعه، فيكرر الصوت ليتكرر إحساسه بهذا؛ كما أن إحساسه صوت طبله دقها بيده أو صوت هنة رماها يدعوه إلى تكرار الدق والرمي ليكرر نفس الصوت فيتكرر إحساسه به؛ وهذا مظهر من المظاهر التي أطلق عليها العلامة بلدوين « تقليد الطفل لنفسه » أو « التفاعل الدائري عند الطفل ».

٣ - وفي مبدأ هذه المرحلة يضع الطفل، في معظم الكلمات التي يقلدها، نفس الأصوات التي كان يغلب عليه تكرارها في مرحلة « التمرينات النطقية ». فإذا كان في تمريناته النطقية يغلب عليه تكرار مقطع

« با » مثلاً ، فإنه يضعه في معظم الكلمات التي يحاول محاكاتها في فاتحة تقليده اللغوي . فيقول مثلاً : « باد » (قاصداً « أحمد ») و « باب » (قاصداً « كتاب ») و « باية » (قاصداً « طاقية ») و « باسى » (قاصداً « كرسى ») و « باويت » (قاصداً « بسكويت ») ... وهلم جرأ . — وهذا مظهر من مظاهر ما يسميه علماء النفس « مقاومة القديم للجديد » أو

« آثار العادات اللغوية » . — ويبدو في صورة أشد وضوحاً عند الكبار إذ يتعلمون لغة أجنبية أو يحاكون ألفاظها فيستبدلون بما تشتمل عليه هذه اللغة من أصوات لأعهد لهم بها أصواتاً شبيهة بها من أصوات لغتهم .

٤ — وفي مبدأ هذه المرحلة تكثر في لغة الطفل أصوات اللين (حروف المد) وتقل الأصوات ذات المقاطع (الحروف الساكنة) . فيحذف بعض الأصوات الساكنة من الكلمة ويقحم عليها أصواتاً لينة غريبة عنها (كـاـبـا = كلب ؛ باـتى = برنيطة أى قبعة ... الخ) .

٥ — وفي أوائل هذه المرحلة (في أواخر السنة الثانية تقريباً) يظهر لدى الطفل ما يصح أن نسميه « بالحاكاة الموسيقية للعبارات » . فيحاكي الطفل أحياناً بعض العبارات التي يسمعها مجرد محاكاة موسيقية ؛ بأن يلفظ أصواتاً مبهمه تمثل في توقيعها الموسيقى أصوات العبارة التي يريد محاكاتها بدون أن تشتمل على كلماتها ؛ كما تحول قطعة شعرية إلى قطعة موسيقية . وقد لاحظت هذا على أولادى عفاف وأقدام وحزم ونائل ، ولم أعر على أحد قد لاحظته من قبلى .

٦ — وفي مبدأ هذه المرحلة يسير الطفل ببطء كبير في محاكاته . فقد تمضى أشهر بدون أن يستطيع النطق بأكثر من بضع كلمات مع أنه

يكون فاهما لمعظم ما يسمعه وما يقال له كما سبقت الإشارة إلى ذلك^(١). ثم تنحل عقدة لسانه مرة واحدة، وحينئذ يسير في هذه السبيل بخطى حثيثة لدرجة يصعب معها على من يلاحظه أن يحصى ما يدخل في متن لغته كل يوم من كلمات جديدة. فمن مبدأ هذه المرحلة إلى أوائل الشهر الرابع من السنة الثانية، لم تكن ابنتي عفاف لتستطيع النطق إلا بكلمة واحدة وهي «بابا»؛ ثم زاد متن لغتها كلمتين أخريين وهما: «بو» = أمبو (أى طلب الشرب)؛ و «كانى» = تانى (تطلب بذلك تكرار الشيء مرة ثانية). وفي أوائل الشهر الخامس من السنة الثانية زاد متن لغتها كلمة رابعة وهي «ماما»؛ وفي أوائل السادس كلمتين وهما «كاكا» (كانت تطلقها على الدجاجة والحمامة سواء أكانتا حيتين أم مطهيتين) و «نا» = لآ (علامة النفى)؛ وفي أواخر التاسع كلمتين وهما «ننا» (أى النوم) و «إث» = إرش (أى قرش)؛ وفي أواخر العاشر ثلاث كلمات وهي «أننا» = الله! (ما أحسن هذا!) و «توتو» (أى الكلب) و «نمنه» = نملة؛ ومن أواخر الحادى عشر من السنة نفسها (السنة الثانية) انحلت عقدة لسانها وأصبح من الصعب متابعتها وإحصاء ما يجد في متن لغتها من كلمات. — وفي أواخر الشهر الحادى عشر لم يكن ابني إقدام ليستطيع النطق إلا بكلمة واحدة وهي «بو» = أمبو = الماء أو الشرب؛ ثم زاد متن لغته كلمة ثانية وهو «بابا»؛ ثم كلمة ثالثة وهي «تاته» بمعنى المشى (كنا نكرر له هذه الكلمة في أثناء تدريبه على المشى)؛ ثم كلمة رابعة في الشهر الثانى من سنته الثانية وهي «ماما»؛ ثم كلمتين أخريين في الشهر السادس من سنته

(١) أنظر صفحات ١٢٨ — ١٣٠. وقد ذكر العلامة شترن أن أحد أبنائه وسنته خمسة عشر شهرا، كان عدد الكلمات التي يفهمها ثلاثة أضعاف الكلمات التي يستطيع النطق بها، وأنه لما بلغ العشرين شهرا ما كان يستطيع حصر الكلمات التي يفهمها، على حين أن الكلمات التي كان ينطق بها حينئذ كانت محدودة.

الثانية ، وهما « مم » = الطعام أو الأكل ، و « كخ » (الشئ الرديء الذى لا يصح لمسه أو العمل القبيح الذى لا يصح الإتيان به) . وفى أوائل السنة الثالثة كان متن لغته يتألف من نحو خمس عشرة كلمة فقط . ثم انحلت عقدة لسانه مرة واحدة فأخذت لغته تزيد كل يوم كلمات كثيرة .

وكذلك كان شأن ابنى حزم . ففي الشهر الخامس من سنتها الثانية (مارس سنة ١٩٤٣) . كان متن لغتها يتألف من إحدى عشرة كلمة فقط ؛ وقد ظهرت لديها على الترتيب التالى : « تاتا » أى المشى ؛ « بابا » أى الوالد ؛ « مم » أى الأكل ؛ « ماما » أى الوالدة ؛ « نفا » نينة أى جدتها ؛ « ددّا » أى الخداء الذى تلبسه وهى تمشى (كانت تسمى المشى نفسه تاتا) ؛ « نن » أى النوم ؛ « أدّا » أى فيفى (وهى أختها عفاف) ؛ « دد » أى تحت (وكانت تقولها عندما تطلب نزولها إلى الدور الأسفل من المنزل أو إلى حديقته) ؛ « أمّا » أى أحمد الخادم ؛ « أوم » (كانت تلفظها هكذا ôme) وتعنى بها قُم ، وتقولها عند ما تطلب إلى أحد أن يقوم لغرض ما تريده ، ويفهم هذا الغرض من سياق الحال ^(١) . وفى أوائل سنتها الثالثة انحلت عقدة لسانها وأخذت لغتها تزيد كل يوم كلمات كثيرة .

وقد سار ابنى نائل فى تطوره اللغوى — وسنه الآن (٤٦/٧/٢٥) سنتان إلا أربعة أيام — على نفس الوتيرة التى سار عليها إخوته عفاف وإقدام وحزم ، مع اختلاف يسير فى المفردات التى كان يتألف منها متن لغته فى كل مرحلة من المراحل . ولم تكبد تنحل عقدة لسانه وتغزى كلماته إلا منذ شهر تقريباً .

(١) من الغريب أن ظهرت لديها فى هذا الدور المبكر هذه الكلمة التى تدل على فعل الأمر . — وفى معظم كلماتها السابقة كانت تقلد أخاها إقداماً فى لغته وفى مخارج حروفه .

أما ابنتي وفاء — ولم يبق لها الآن (٤٦/٧/٢٥) على تمام سنتها الأولى إلا سبعة أيام — فلا يتجاوز متن لغتها كلمتين : إحداهما « الله » (والغالب أنها ترددها بدون فهم معناها ، وقد علقت بذهنها من كثرة تكرارها أمامها لاستحسان أمر ما) ؛ وثانيهما « بابا » (وترددها على الأخص عند رؤيتي أو سماع صوتي ، وهذا يدل على فهمها لمعناها ، وقد ظهرت لديها بعد الكلمة الأولى) .

٧ — وفي أواسط هذه المرحلة وأواخرها تصل قوة التقليد اللغوي عند الطفل ، في مهارتها ودقتها ونشاطها وغزارة محصولها وأهميتها وسيطرتها على النفس ، إلى أقصى ما يمكن أن تبلغه قوة إنسانية .
ففي هذا الدور لا يدع الطفل أى كلمة أو جملة جديدة يسمعها أو تطلب إليه محادثتها بدون أن يحاكيها . وإن عاقه طول جملة عن تكرارها جميعها ، حاكى ما يعلق بذهنه من كلماتها ، وبخاصة آخر كلمات فيها .

ولا يقتصر على تقليد الكلمات والجل التي يريد المحيطون به على محادثتها ، بل يحاكي كذلك من تلقاء نفسه كثيراً من الكلمات التي ترد في محادثات الكبار على مسمع منه ، حتى الكلمات الدقيقة منها . فقد كنت أتحدث مرة مع أسرة فرنسية في موضوع علمي على مسمع من طفلة صغيرة لهذه الأسرة ما كانت تتجاوز إذ ذاك الخامسة من عمرها ، فلاحظنا بعد حديثنا هذا أن الطفلة تستخدم في عباراتها بعض كلمات من المصطلحات العلمية التي كنا نستخدمها في حديثنا والتي يندر استخدامها في الحديث العادي .
ويحرص الطفل كل الحرص على ما يحصل عليه من مفردات وعبارات ؛ وكثيراً ما يبلغ به هذا الحرص أن يكررها في خلوته ويؤلف من شقاتها أغاني وجملًا عارية عن الدلالة ولسكنها كبيرة الأثر في تثبيتها في ذهنه .

ولا تظهر مهارة الطفل التقليدية في هذا الدور في محاكاة الكلمات
والجمل فحسب ، بل تظهر كذلك في محاكاة الأساليب الصوتية التي يلقى
بها الكبار الجمل الإخبارية والاستفهامية والطلبية والتعجبية والزجرية ...
وهلم جرا ، وحتى في محاكاة الحركات الجسمية واليدوية التي تصحب حديثهم .
ولمهارة الطفل في التقليد اللغوي في أثناء هذه المرحلة ولشدة ميله إليه ،
يستطيع أن يتعلم بسرعة وسهولة عن طريق المحاكاة أية لغة أجنبية إذا
أتيحت له فرصة الاختلاط بالمتكلمين بها ؛ بل يستطيع أن يتعلم بهذه
الوسيلة أكثر من لغة أجنبية واحدة . فالأطفال المصريون مثلا الذين
يبعث بهم آبائهم إلى المدارس الأجنبية في هذا الدور يأخذون عن طريق
المحاكاة عن معلمهم ومعلماتهم اللغة التي يتكلمون بها ، ولا يلبثون بعد أمد
قصير أن يجيدوا هذه اللغة لدرجة لا يستطيع معها أكبر خبير في اللغات
أن يميزهم من أهلها . والطفل إذا ولد من أبوين مختلفي اللغات أخذ عن كل
منهما لغته فيصبح ثنائى اللغة Bilingue . — وإذا أتيح للطفل بصفة دائمة في
هذا الدور سماع أكثر من لغتين أخذها جميعها عن طريق المحاكاة بدون
أن يشعر أنه يتعلم ، ووصل في إجادة كل منها إلى نفس الدرجة التي يبلغها
في لغته الأصلية ، فينشأ متعدد اللغات polyglotte . — ومن أجل هذا تختار
بعض الأسرات الموسرة لأولادها في هذا الدور مربيات مختلفات اللغات
حتى تنتقل إليهم بالمحاكاة جميع لغاتهن .

ومن الطريف أن الطفل الذي تنتقل إليه عدة لغات عن هذا الطريق
يتجه من تلقاء نفسه إل محادثة كل شخص من المختلطين به باللغة التي
أخذها عنه أو التي يعرف أنها لغته بدون أن يشعر أنه يتكلم عدة لغات .
فقد روى الأستاذ جويوم أن طفلا أبوه ألماني وأمه فرنسية قد أخذ الألمانية

عن أبيه والفرنسية عن أمه ، وكان إذا طلب إليه أبوه بالألمانية تبليغ أمر لأمه بلغها ذلك بالفرنسية بدون أن يشعر أنه يترجم إلى لغة أخرى الكلام الذي كلفه أبوه تبليغه .

وفي هذا يختلف الكبار عن الصغار اختلافاً كبيراً . فمهما بذل الكبار في تعلم لغة أجنبية من جهود ومهمسات مدة إقامتهم بين أهلها ، فلن يصلوا في إجادتها من الناحية الصوتية إلى الدرجة التي يصل إليها الصغار في هذا الدور . والسبب في هذا راجع إلى أن الطفل يلبى في محاكاته داعي غريزته ، ويسلك بهذا الصدد طريقاً محبباً إليه ، ويسير على أسلوب يتفق مع أعباءه ، فيسهل عليه بذل الجهود ويؤتي مجهوده أكله . على حين أن الكبير يتعلم اللغة الأجنبية لغاية خارجة عنها ، فيصعب عليه بذل الجهود في هذا السبيل . هذا إلى أن الكبار قد رسخت لديهم عادات كلامية خاصة وتشكلت أعضاؤهم بنطقهم بالشكل الذي يلائمها ؛ فيصعب من الصعب عليهم مع هذا اكتساب عادات صوتية جديدة مخالفة لعاداتهم الأولى . وليس الأمر كذلك عند الطفل ؛ فأعضاء نطقه في هذا الدور تكون مرنة قابلة للتشكل بمختلف الأشكال .

وهذا مظهر من مظاهر ما يسميه علماء النفس «مقاومة القديم للجديد» أو «آثار العادات اللغوية» التي سبق أن أشرنا إليها ^(١) ، والتي تظهر آثارها حتى عند الطيور . فقد لاحظ «لوداتك» أن صغار الطيور المغنية إذا نشأت مع فصيلة أخرى غير فصيلتها قلدها في غنائها ، وأنها إذا بقيت مع هذه الفصيلة حتى كبرت ورسخت عندها هذه العادة الغنائية صعب عليها بعدئذ تقليد صوت فصيلتها نفسه .

(١) انظر آخر صفحة ١٣٤ وأول ١٣٥ .

ولمهاراة الطفل في التقليد اللغوى في هذه المرحلة ، تسرى إليه في أمد
 قصير لهجة المقاطعة التى ينتقل إليها أهله . فقد ذكر الأستاذ « شافر
 Schaffer » أنه قضى شهرين من إجازته الصيفية بفرنكونيا فلاحظ أن
 أبنه ، الذى كان يبلغ حينئذ سنتين وثلاثة أشهر ، قد سرت إليه لهجة
 هذه البلدة ، فأخذ ينطق الكلمات الألمانية وفق لهجتهم في نطقها ، وأن
 هذا الأسلوب قد لازمه بضعة أشهر بعد رجوعه إلى بلده . — وذكر الأستاذ
 « جويوم » أنه قضى مرة إجازته بشرقى فرنسا ، فلاحظ أن أولاده ، الذين
 كانوا يزيدون في سنهم عن ابن شافر ، ينطقون حرف الراء الفرنسى R كما
 ينطق به أهل هذه المقاطعة وكما ينطق بالراء في اللغة العربية (وهذا يخالف
 طريقة النطق به في منطقة باريس وما إليها ، فأهل هذه المنطقة يلفظونه
 بين الراء والغين) . — وقد قضيت أنا مرة إجازتي مع أسرة باريسية بقرية من
 قرى فرنسا تسمى سان كورنتان Saint Corentin متاخمة لمقاطعة نورمانديا
 فأدهشني كثيراً أن طفلة صغيرة من هذه الأمرة ، كانت حينئذ في الخامسة
 من عمرها ، قد سرت إليها ، بعد بضعة أسابيع من إقامتنا ، لهجة هذه القرية
 مع أن اختلاطنا بأهلها كان قليلاً . فأصبح أسلوب حديثها وتركيبها للجمل
 ونطقها بالكلمات مطابقاً لأسلوب حديثهم وتركيبهم ونطقهم . وظهر هذا
 لديها حتى في مخارج الأصوات نفسها وطريقة النطق ببعض حروف المد .
 فقد استحال مثلاً صوت المد الفرنسى oi (وا) في لسانها إلى صوت واو ممدودة
 بالألف الممالة wai كما كان شأنه في لسان أهل هذه القرية (فكلمة *poir*
 مثلاً كانت تنطقها *pwair* ، وكذلك كل الكلمات المشتملة على صوت oi) .
 وعبثاً حاولنا إصلاح ما أصاب نطقها من لحن وتحريف ؛ فإنها لما شعرت
 بامتناعنا من طريقتها وسخرينتنا بها كانت تجتهد في أثناء كلامها معنا أن

تكرن باریسیة اللهجة ، فاذا خلت إلى أطفال هذه القرية أو كبارهم عادت إلى طریقتها . وبقيت آثار هذه اللهجة في حديثها بضعة أسابيع بعد عودتنا إلى باریس .

٨ — ولا يقتصر نشاط الطفل التقليدى في هذه المرحلة على الأصوات اللغوية ، بل يمتد كذلك إلى ما عداها من الأصوات ، كأصوات الحيوان والطيور ومظاهر الطبيعة والأصوات الشادة وأصوات المصابين بعاهات في النطق والأصوات التي تحدثها الأفعال كأصوات الضرب والقرع والسقوط . وما إلى ذلك . وهم في هذه الناحية كذلك أمهر كثيراً من الكبار . فقد لاحظ العلامة تين Taine أن الأطفال في هذه المرحلة أدق وأمهر من الكبار في محاكاة أصوات الحيوان في صورتها الطبيعية . وذكر العلامة جوتمان أنه كان يتدرب على « فن التكلم الجوفى Ventriloquie » (وهو معالجة النطق في صورة تشعر السامع أن الكلام صادر من بطن المتكلم أو من شخص آخر غيره . وقد مهر فيه كثير من المشعوذين الذين يحاولون إيهام الناس أن الجن تلابسهم وتنطق من جوفهم) فأدهشه أن ابنه الصغير ، الذي لم يكن يتجاوز حينئذ الثانية من عمره قد سبقه كثيراً في هذا المضمار بمجرد سماعه لمحاولات أبيه .

هذا ، ويبدو أن اتجاه الطفل لمحاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأصوات التي تحدثها الأفعال يظهر قبل اتجاهه إلى محاكاة الكلمات . فقد كان في استطاعة ابنتي عفاف في الشهر الثالث من سنتها الثانية (٩ - ٤ - ٣٥) أن تحاكي صوت طائفة كبيرة من الحيوان ؛ مع أنها إذ ذاك لم تكن لتستطيع النطق إلا بكلمة واحدة وهي « بابا » . وقد كان في استطاعة ابني إقدام في الشهر الثاني من سنته الثانية أن يحاكي أصوات كثير من الحيوانات

والأشياء للإشارة إليها (« قو » = الطيارة أو السيارة ؛ « آأ » =
الدجاجة ؛ « آأآ » = الضرب . . . الخ) مع أنه في هذه المرحلة ما كان
يستطيع النطق إلا بأربع كلمات .

ويسلك الطفل في تقليده لهذا النوع طريقتين : إحداهما أن يلفظه في
صورته الطبيعية أى في أصوات مبهمه ، وفي هذه الطريقة على الأخص تظهر
مهارة الطفل ؛ وثانيتهما أن يمثله في أصوات ذات مقاطع وأصوات
مد (« ماء » لثغاء الحروف ، « كاك » لصوت الدجاجة ، « هو هو » لنباح
الكلب . . . وهلم جرا) .

(ثانيا) ومن أهم الظواهر المتعلقة بالدلالة في هذه المرحلة الأمور الآتية :
١ — على الرغم من أن فهم الطفل لمعاني الكلمات يبدو لديه في
المرحلة السابقة لمرحلة التقليد كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ^(١) ، فإن درجة فهمه
تظل مدة طويلة ضعيفة وغير دقيقة . — ويبدو هذا في مظاهر كثيرة أهمها ما يلي :
(١) أنه في أوائل هذه المرحلة يستخدم الكلمات القليلة التي يستطيع
النطق بها استخداما واسعا يدل على عدم دقته في فهم مدلولاتها ؛ فيحمل كلا
منها من المعاني أكثر مما يحتمله ، ويعبر بها عن جميع ما يرتبط بمعناها الأصلي
برابطة ما ، وقد يتجاوز هذا كله فيعبر بها عن أمور لا صلة لها مطلقا بمعناها
الأصلي . فيطلق مثلا « كا كا » على الدجاجة ، والطبق الذي تقدم فيه ،
والطاهى الذي يعدها ، وغرفة الطهى التي تعد فيها ، والسكين الذي تذبج
به ، والقفص الذي تحبس فيه ، والبيضة التي تبنيها . . . ؛ وقد يتجاوز
هذا كله فيطلقها على شيء أجنبي عنها كالسكرتير مثلا لأدنى ملابسة في
ذهنه أو لاضطراب معناها لديه . — وقد لاحظت أن ابنتي عفاف في أوائل

(١) أنظر ص ١٢٨ — ١٣٠ .

سقتها الثالثة تطلق كلمة « نَنَّا » على النوم وما يشتق منه ، وعلى جميع الأمور التي تشبهه أو تمت إليه بصلة ؛ فكانت تطلقها على السرير ، وعلى الاختفاء فتقول « السكا كا ننا » قاصدة التعبير عن اختفاء الدجاجة عن الأنظار ، وعلى البعد والإبعاد فتقول « ماما ننا » معبرة عن رغبتها في أن تبعد أمها عن مجلسنا ، وعلى حفظ الشيء بعد الفراغ من استخدامه فتقول « فوطه ننا » أى لأن المشوش (الفوطة) قد انتهت الحاجة إليه وحفظ في المكان المعتاد حفظه فيه . وكانت تطلق لفظ إمّة = عمة (أى عمامة) على العمامة وعلى الشخص الذي يلبسها .

وهذا التوسع في الاستعمال لا ترجع أسبابه دائما إلى ضعف الفهم وعدم الدقة في إدراك المدلولات ، بل ترجع أحيانا إلى ضآلة محصول الطفل في الكلمات في ذلك العهد وحاجته إلى التعبير على أى وجه ، وترجع أحيانا إلى الأمرين مجتمعين .

(ب) أنه في أوائل هذه المرحلة يطلق اسم الجنس على غير أفراده لأدنى مشاهدة . فقد لاحظت أن ابنتى عفاف كانت إلى أواخر السنة الثانية ، تطلق « كا كا » (ومعناها الأصلية في لغتها الدجاجة) على الدجاج والحمام والإوز والبط . . . وما إليها ؛ وكلمة « ماء » (ومعناها الأصلية في لغتها الحروف) على الحروف والجار . . . وما إليهما ؛ و « ماما » على جميع السيدات و « بابا » على جميع الرجال . . . وهلم جرا .

وكما تقدمت السن بالطفل وكثر محصوله اللغوى ، يدق فهمه ، وتحدد معانى الكلمات في ذهنه ، فتتخلص من المدلولات الأجنبية التي كانت عالقة بها ، وتتميز لديه الأجناس بعضها من بعض ، فيطلق على أفراد كل منها اسمها الخاص بها .

٢ - وفي أوائل هذه المرحلة تبدو لغة الطفل عارية عن الصرف والاشتقاق . فكل كلمة من كلماته تلازم شكلا واحداً . وتدل في شكلها هذا على جميع ما يشتق منها ويتصل بها . ويتقدم الطفل في هذه المرحلة يدرك العلاقة بين تغير بنية الكلمة وتغير معناها أو زمنها ، فتظهر حينئذ عناصر الصرف والاشتقاق في لغته .

٣ - وفي مبدأ ظهور هذه العناصر يميل الطفل إلى القياس والسير على وتيرة واحدة حيال جميع الكلمات . فتراه مثلاً يتبع طريقة واحدة في التأنيث ، فيقول خروف وخروفة وحصان وحصانة كما يقول كلب وكلبة ..

٤ - يفتتح الطفل هذه المرحلة بالنطق بكلمات مفردة قاصداً بها التعبير عما نعر عنه بالجل . فيقول مثلاً - « باب » قاصداً افتتاح الباب ، و « شباك » قاصداً اقفل الشباك ، و « عصا » قاصداً اضرب القبط بالعصا ... وهلم جرا . ويفهم غرضه من السياق والظروف المحيطة به والإشارات اليدوية والجسمية التي تصحب كلامه .

ويختار الطفل عادة للتعبير عن الجملة الكلمة التي يجيد النطق بها أو الكلمة التي تسبق غيرها إلى لسانه ، ولو لم تكن ذات أهمية في المعنى الذي يريد تقريره . فمن ذلك أن ابنتي عفاف وسنها ثمانية عشر شهراً وبضعة أيام (٣٥/٨/٢) كانت تسير القهقري ، فعثرت في طبق كان يوضع فيه اللبن لهرتها وأولادها الصغار ، وكاد يخلت توازنها ؛ ولما تبين لها السبب في عثرتها قالت « بو » (بو = أمبو = الشرب) ؛ أي إن السبب في ذلك هو الطبق الذي تشرب فيه الهرة وأولادها لبنها .

ثم ترتقى لغة الطفل بهذا الصدد فتصبح ثنائية الكلمات (عفاف في أوائل السنة الثالثة : « ماء مم » أي الحروف يأكل ؛ « ماما ننا » أي

يجب أن تغادر ماما هذا المكان ...) . وبعد ذلك بقليل تصبح لغته ثلاثية الكلمات (عفاف في الشهر الرابع من السنة الثالثة : « ماما أوه إنا » = ماما ألم هنا ، مشيرة إلى رقبة والدتها ، أى إن برقبة أمها ألما أو مرضا) . أما تركيب الجمل تركيباً كاملاً فلا يصل إليه الطفل إلا في أواخر هذه المرحلة .

٥ — وفي مبدأ ظهور الجمل في لغة الطفل تبدو عارية عن الروابط والحروف ، ويبدو تركيبها ساذجاً ، وتبدو كلماتها بدون تنسيق ولا ترتيب ، فيوضع بعضها بجانب بعض كيفما اتفق . ومن نماذج ذلك ما قالته ابنتي عفاف في ٢٠/٧/٣٦ : « أنا نونو (صغيرة) دده (هكذا) . — وقوست ظهرها لتمثل الحالة التي كانت عليها وهي صغيرة (ماما دز (بز ، ثدى) ساه (شاي) » ؛ أى حينما كنت صغيرة على هذه الصورة كانت والدتي ترضعني الشاي في الثدي الصناعي .

وقد يرتب الطفل أحياناً كلمات جملة بشكل يتفق مع ما لكل منها من أهمية في نظره ؛ فيبدأ بأكبرها أهمية ويتدرج حتى ينتهي بأقلها شأنًا . فيقول مثلاً : « عصايا بابا ضرب محمد » قاصداً أن أباه قد ضرب محمداً بالعصا . فيقدم «العصا» لأنها أكبر عناصر الجملة أهمية في نظره ، فانتباهه قد تعلق بها أكثر من تعلقه بما عداها ، ولأن بيان آلة الضرب هو أهم ما يرمى إليه من جملة ؛ ثم يتبعها بالكلمة الدالة على الشخص الذي اتصل بها اتصالاً مباشراً وقام بتحريكها ، وهو « بابا » ؛ ثم يأتي بالكلمة الدالة على أثر تحريك أبيه للعصا وهي « ضرب » ؛ وينتظم جملة بكلمة « محمد » الذي لم يقم بعمل إيجابي في الحادث الذي يريد الطفل التعبير عنه .

٦ - وفي قسم كبير من هذه المرحلة يتأثر الطفل في مفردات لغته وتراكيبها وقواعدها بأكثر الأفراد مخالطة له وأحبهم إليه كأمه ومربيته وأخيه الأكبر وأخته الكبيرة ، فتغلب في لغته مظاهر التقليد لهؤلاء ، حتى أنها لا تكاد تختلف في معظم هذه المرحلة عن لغتهم . وعن هذا الطريق ينتقل إلى لغة الطفل . يعلق بها بعض أخطاء في المفردات والقواعد والأساليب ، حتى الأخطاء التي تكون ناشئة عن خلل في أعضاء النطق للشخص الذي تغلب عليه محكاته ، وتظل هذه الأخطاء ملازمة للطفل أمدا طويلا . ومن غريب ما لاحظته بهذا الصدد أن ابنتي « حزه » عبر عن نفسها بصيغة المذكر ، فتقول مثلاً : « أنا نازل ؛ أنا طالع ؛ أنا خارج ... الخ » بدلا من « أنا نازلة ؛ أنا طالعة ؛ أنا خارجة . الخ » ، وهي في ذلك تحاكي أخاها « إقداما » في تعبيره عن نفسه ومع أنها كادت تبلغ الآن الخامسة من عمرها ، ومع أننا لا نلوجدها في إصلاح طريققتها هذه وإبداء السخرية بها ، فإنها لا تزال عالقة بلسانها إلى الوقت الحاضر .

٧ - وأول كلمات تبدو عند معظم الأطفال هي أسماء الذوات ، وتظهر بعدها الأفعال ^(١) ، ثم الصفات ^(٢) ، ثم الضمائر (ولعدم وجود الضمائر

(١) لاحظت أن أول نوع من الأفعال ظهر في لغة ابنتي عفاف كان فعل الأمر . ففي أوائل السنة الثانية (بناء من ٣/٤/٣٦) نطقت بفعل « تعانى » = تعال (أمر بالجيء) و « اسدى » (أمر بالانتظار) وكانت تستعمل هذين الفعلين مسندين للمذكر دائما ولو كان المخاطب مؤنثا ؛ و « أدى » = خدى (أمر بالأخذ) و « آتى » = هاتى (أمر بالإعطاء) وكانت تستعملهما مسندين لمؤنث دائما ولو كان المخاطب مذكرا . — ولم يظهر المضارع والماضي في لغتها إلا في مرحلة لاحقة لهذه المرحلة . ومثل هذا لاحظته على أولادى إقدام وحزم ونائل . وقد ظهر فعلى من أفعال الأمر وهو « أوم = قم » عند ابنتي حزم في مرحلة مبكرة (في الشهر الخامس من سنتها الثانية) كما سبقت الإشارة إلى ذلك بصفحة ١٣٧ .

(٢) قد تظهر الصفات عند بعض الأطفال في مرحلة سابقة لمرحلة ظهور الأفعال ؛ =

في لغة الطفل في مبدأ هذه المرحلة نراه يعبر عن نفسه باسمه العلم فيقول
مثلا « فيفي مم » أى فيفي تريد أن تأكل ^(١) ، ولا تظهر الحروف وما يشبهها
من الظروف والروابط وأسماء الشرط إلا في منتصف هذه المرحلة أو أواخرها ^(٢) .

== بل لاحظ العلامة پريير Preyer أن أول كلمة نطق بها ابنه كانت صفة . —
والذى لاحظته على ابنتى عفاف أن الصفات والأفعال قد ظهرا لديها في وقت واحد ،
ولكنهما ظهرا متأخرين عن أسماء الذوات ، ففي الوقت الذى كانت تنطق فيه بأفعال
الأمر التى تقدمت الإشارة إليها فى التعليق السابق كانت تنطق ببعض صفات : فمن
ذلك « دح » بمعنى جميل (٣٦/٣/٤) و « أحمج » بمعنى أحمر (وكانت
تستعمله فى صيغة المذكر دائما ولو كان الموصوف مؤنثا و « بيده » أى بيضاء
(وكانت تستعملها فى صيغة المؤنث دائما ولو كان الموصوف مذكرا) وقد ظهرا لديها
فى ٣٦/٧/١١ . ومثل هذا لاحظته على أولادى إقدام وحزم ونائل .

(١) غير أنى لاحظت على ابنتى عفاف أن ضمير المتكلم المنفصل « أنا » قد
ظهر فى لغتها يوم ٣٦/١/٢٩ أى قبيل ظهور الصفات والأفعال ، ولاحظت
كذلك أنها تستخدمه استخداما صحيحا فلا تعامله معاملة الأعلام كما يفعل بعض الأطفال
فى هذه المرحلة بل تستعمله حينما تريد الإشارة إلى نفسها .

(٢) لم تظهر الحروف وما إليها فى صورة واضحة عند ابنتى عفاف إلا فى أوائل
الشهر الرابع من سنها الثالثة . فى ٣٦/٥/١١ ظهرت « لانا » بكسر الهمزة
بمعنى هنا (ماما أوه لانا = ماما تشكو ألما هنا مشيرة إلى رقبتهما) ، وفى ٣٦/٧/١١
ظهر فى لغتها « بئيد » بمعنى بعيد ، و « لابه ده » أى ما هذا و « ياه النداء »
(لابه ده يابابا = ما هذا يابابا) .

أما قبل هذا العهد فما كان يوجد فى لغتها من هذه الفصيحة إلا كلمات ظهرت
مبكرتين قبل أو انهما : أحدهما « نأ » بنون مفتوحة فهمزة ساكنة ، بمعنى لا (أداة النفى . —
وقد ظهرت فى الشهر التاسع من سنها الثانية) وثانيتهما « نأم » بنون مفتوحة
فهمزة ساكنة قيم ، بمعنى نعم (أداة الإيجاب . وقد ظهرت يوم ٣٥/١٢/٢٠) . —
ومن غريب ما لاحظته على ابنتى عفاف بهذا الصدد أن واو العطف ، مع كثرة تكرارها
فى الكلام ومع قيمها لمداولها قد تأخر ظهورها كثيرا فى لغتها . فقد طالب إليها يوم
٣٦/٧/٢٦ أن تقول للخادمة : « لانت كنج وعبيطة » فقالت لها : « لانت كنج
لانت أبيضه » فكررت الضمير بدلا من واو العطف ، ومن الواضح أن تكرارها
الضمير دليل على فهمها لمداول واو العطف .

ولذلك تظهر جل الطفل في المبدأ عارية عن الروابط والحروف كما سبقت الإشارة إلى ذلك (١).

والسبب في هذا راجع إلى أن الطفل يسير في ارتقائه اللغوي وفقاً لارتقاء فهمه . فدرجة نمو الفكرى في مبدأ هذه المرحلة لا يتيح له أكثر من فهم الكلمات الدالة على أمور حسية يمكن أن يشار إليها ؛ ولذلك اقتصر متن لغته في هذا الدور على أسماء الذوات . فإذا نما تفكيره أمكنه أن يدرك مدلولات الكلمات المعبرة عن أمور معنوية ؛ وحينئذ تظهر في لغته الأفعال (الدالة على الحدث والزمان) والصفات (الدالة على معنى كلى يتلبس به الذوات بشكل عارض) وما إليهما . ولما كانت الحروف والروابط أدق أنواع الكلمات مدلولاً ، لم يتح له فهمها إلا في أواسط هذه المرحلة أو أواخرها ؛ فتأخر ظهورها تبعاً لذلك .

وقد قسم العلامة شترن Stern هذا الطريق إلى ثلاث مراحل : سمي أولها « مرحلة المادة » Stade de la substance وهي المرحلة التي تظهر فيها أسماء الذوات ؛ وسمي ثانيها « مرحلة العمل » Stade de l'action وهي المرحلة التي تظهر فيها الأفعال ؛ وسمي الثالث « مرحلة العلاقات » Stade des relations وهي المرحلة التي تظهر فيها الحروف والروابط . (٢)

٨ — يكثر في لغة الطفل في أوائل هذه المرحلة الكلمات المأخوذة عن أصوات الحيوان والأشياء والتي يقصد بها التعبير عن مصادرها أو عن أمور تتصل بها (ماء للخروف ، وكاكا للدجاجة ، وآآ للضرب ، ومم للأكل وهلم جرا) . — وقد ثبت أن بعض هذه الكلمات يصل إليها الطفل بنفسه بدون تلقين الكبار .

(١) انظر رقم ٥ صفحة ١٤٦ .

(٢) V. Delacroix : Language et Pensée 304, 305

٩ — ويعتمد الطفل في معظم هذه المرحلة اعتمادا كبيرا على لغة الإشارات فيمزجها بلغته الصوتية لتحديد مدلولها وتوضيح مهمها وتكملة نقصها وتمثيل حقائقها^(١). — وقد يستخدمها وحدها في التعبير عما يود التعبير عنه. ويكثر هذا لديه قبل ظهور اللغة أى قبل دخوله في مرحلة التقليد، وفي أوائل هذه المرحلة. ففي أواخر السنة الثانية كانت ابنتي عفاف تقتصر في التعبير عن كثير من حاجاتها على الإشارة اليدوية والجسمية. فمن ذلك أنها في تعبيرها عن الفيل كانت تقبض أصابعها ماعدا السبابة وتضع كفها بهذا الشكل تحت شفتيها وتحرك السبابة كما يحركه المصلى في تشبهه، ممثلة بذلك خرطوم الفيل وحركته. وكانت تستخدم هذه الحركات كلما طلبت الذهاب الى حديقة الحيوان، أو سئلت عما رأته بها، أو طلب إليها بيان ما مثله صورة فيل... وهلم جرا. وقد تبلغ لغة الإشارة عند بعض الأطفال شأوا كبيرا، فيستطيعون التعبير بها عن معان دقيقة وقصص طويلة. فقد أردت مرة (٢٢ — ١١ — ٣٥ أى في أواخر السنة الثانية) أن أشغل ابنتي عفاف عن اللعب في سريرها لتتفرغ للنوم، فأخذت أقص عليها بالألفاظ التي تفهمها وبالحركات قصة طويلة تتعلق بأسد كان يأكل قطعة لحم فسقط عليه غراب وضربه بمنقاره واختطف منه قطعة اللحم وطار بها حتى نزل على شجرة وأخذ يأكلها. فاستأثرت هذه القصة بانتباهها، وكانت كلما فرغت من مرحلة من مراحلها، تشير إلى إشارة

(١) من أوضح النماذج بهذا الصدد ما صدر عن ابنتي عفاف (يوم ١٣/٣/٣٦) إذ أشرت في كتاب فرنسي إلى صورة غزال يرعى السكلا وطلبت إليها أن تذكر ما مثله هذه الصورة فقالت « ماء مم » (أى حيوان يأكل) وعززت هذا بأن مثلت هيئة حيوان وحركت فكيفها وشفتيها كما تحركها أثناء الأكل. انظر مثالا آخر بصفحة ١٤٦ رقم ٥.

الفهم المتتبع لحديثي قائلة : « إيه ، إيه » . وبعد أن فرغت من القصة أخذت أسألها عنها كما يفعل المدرس عقب درس محادثة ، فطمقت تمثل بحركات يديها وفيها أعمال الأسد وهو يتناول غذاءه ، ثم حركات الغراب إذ ضرب الأسد بمنقاره واختطف منه قطعة اللحم ، وإذ طار بها إلى الشجرة ... الخ ، غير مستخدمة في ذلك إلا بضع ألفاظ ، ككلمة « أأ » التي كانت تعبر بها عن الضرب ، وكلمة « مم » التي كانت تعبر بها عن الأكل .

— ٤ —

المرحلة الرابعة : مرحلة الاستقرار اللغوي

وهي المرحلة الأخيرة في هذا السبيل ، وتبدأ من سن السادسة أو السابعة أو الثامنة تبعاً لاختلاف الأفراد . وبدخول الطفل في هذه المرحلة تستقر لغته وتتمكن من لسانه أساليبها الصوتية ، وترسخ لديه طائفة كبيرة من العادات الكلامية الملائمة لطبيعتها الخاصة .

ومن أجل ذلك يشعر الطفل في هذه المرحلة بصعوبة كبيرة في تعلم اللغات الأجنبية . وتبدو هذه الصعوبة أو ضح ما يكون في النطق بالكلمات المشتملة على أصوات لا نظير لها في أصوات لغته . فالطفل المصري مثلاً يجد في هذه المرحلة صعوبة كبيرة في النطق بالكلمات الفرنسية المشتملة على حروف ...etc u, p, g, u, eu ، ويتجه إلى أن يستبدل بها أصواتاً قريبة منها من أصوات لغته .

هذا ولا ينتهي الأمر بآفة الطفل في هذه المرحلة إلى أن تكون مطابقة كل المطابقة للغة الجليل الذي أخذها عنه ، بل تستقر لديه في صورة تختلف بعض الاختلاف عن لغة آبائه . ويرجع هذا الاختلاف إلى أسباب كثيرة من أهمها ما يلي :

١ — النظم والتقاليد التي يسير عليها المجتمع في تلقين الأطفال اللغة في الأسرة وتعليمهم إياها في المدارس . فلا يخفى ما لهذه النظم من أثر بليغ في تطور اللغة في أثناء انتقالها من السلف إلى الخلف ، وفي مبلغ اختلافها في كل جيل عن الجيل السابق له .

٢ — كثرة استخدام الكبار في جيل ما لبعض المفردات في غير ما وضعت له عن طريق التوسع أو الجاز ، لدواع اجتماعية خاصة . فقد يكثر استخدام الكلمة لداع من هذه الدواعي في جيل ما في ناحية معينة من نواحي دلالتها أو في معنى مجازي تربطه بمعناها الأصلية بعض العلاقات ، فيعلق المعنى الخاص أو المجازي وحده بأذهان الصغار ، ويتحول بذلك مدلول الكلمة في ألسنتهم إلى هذا المعنى الجديد . — وإلى هذا العامل يرجع أهم الأسباب في تحول الكلمات إلى معان كانت مجازية في الأصل وفيما يعترى المدلولات في نطاقها من سعة أو ضيق . بل إن طائفة من العلماء ، على رأسها العلامة هرزوج Herzog ، قد رجعت إلى هذا العامل وحده كل ما يحدث من تطور في الدلالة (١) .

٣ — التطور الطبيعي المطرد لأعضاء النطق (قانون روسلو Rousselot) . فمن المقرر أن هذه الأعضاء غير جامدة على حالة واحدة ، وأنها في تطور طبيعي مطرد في بنيتها واستعدادها ومنهج أدائها لوظائفها ، وأنها في كل جيل تختلف عنها في الجيل السابق له . فحناجرنا وحبالنا الصوتية وألسنتنا وحولقنا وسائر أعضاء نطقنا تختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأولين ، إن لم يكن في بنيتها الطبيعية فعلى الأقل في استعداداتها ، بل إنها لتختلف عما (١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا « اللغة والمجتمع » صفحتي ٤٦ ، ٤٧ وانظر كذلك .

كانت عليه عند آباءنا المباشرين . غير أن هذا التطور يسير ببطء وتدرج ، حتى أن آثاره لاتكاد تحس بين جيلين متتابعين ؛ ولكنها تبدو واضحة كل الوضوح بالموازنة بين جيلين من شعب واحد تفصلهما حقبة كبيرة من الزمن . ومهما يكن من شيء ، فإن كل تطور يحدث في أعضاء النطق أو في استعدادها ، مهما كان مبلغه ، يتبعه تطور في أصوات الكلمات ، فتتحرف هذه الأصوات عن الصورة التي كانت عليها إلى صورة أخرى أكثر منها انسجاماً مع الحالة التي انتهت إليها أعضاء النطق .

ومن ثم لم يكن بد من أن يحدث في أصوات كل لغة انحراف ما في أثناء انتقالها من السلف إلى الخلف ، تبعاً لما يمتاز به أولئك عن هؤلاء من خصائص ناشئة عن التطور الطبيعي لأعضاء النطق ، وما تقضى به سنن الطبيعة من اختلاف هذه الأعضاء في كل جيل عنها في الجيل السابق له . وقد جرت العادة بنسبة هذا القانون إلى العلامة « روسلو » ؛ لأنه وقف قسماً كبيراً من مجهوده على دراسته ، وتدعيمه بالأدلة القاطعة ، وتحرى حقائقه بطرق الملاحظة والتجربة واستخدام الأجهزة . غير أنه لم يكن أول من اهتدى إلى هذا القانون ، فقد سبقه إلى ذلك عدد كبير من الباحثين من أشهرهم العلامة هرمان پول Herman Paul .

هذا ولا يقتصر أثر العامل الذي نحن بصددده على تحريف بعض أصوات الكلمة عن مخارجها الأولى ؛ بل قد يؤدي إلى انقراض الكلمة بمرتها . إنقراضاً تاماً من لغة المحادثة . وذلك أن ثقل الكلمة على اللسان ، أو عدم تلاؤم أصواتها مع الحالة التي انتهى إليها تطور أعضاء النطق في جيل ما ،

كثيراً ما يعرضها هي نفسها للزوال . وإلى هذا يرجع السبب في انقراض كثير من الكلمات العربية في لغات التخاطب العامية في العصر الحاضر (١) .

٤ — الأخطاء السمعية التي تنشأ عن ضعف بعض الأصوات والتي تؤدي إلى سقوط هذه الأصوات في أثناء انتقال اللغة من السلف إلى الخلف (قانون روسلو ومييه Rousselot-Meillet) فقد يحيط بالصوت — وخاصة إذا كان واقعاً في آخر الكلمة — بعض مؤثرات تعمل على ضعفه بالتدريج، فيتضاءل جرسه شيئاً فشيئاً، حتى يصل في عصر ما إلى درجة لا يكاد يقينه فيها السمع . حينئذ يكون عرضة للسقوط في لغة الخلف . وذلك أن معظم الصغار في هذا العصر لا يكادون يقينون في نطق الكبار، فينطقون بالكلمات مجردة منه، ولا يفتن الآباء لسقوطه في لغة أولادهم لنفس السبب الذي من أجله لم يفتن الأولاد لوجوده في لغة آبائهم . ويرجع أكبر قسط من الفضل في توضيح هذا العامل وبيان آثاره إلى الأستاذين روسلو ومييه؛ ولذلك تنسب إليهما نظريته .

وعلى هذا العامل يقع قسم كبير من التبعة في سقوط كثير من الأصوات الواقعة في أواخر الكلمات في عدد كبير من اللغات الهندية — الأوروبية الحديثة، وفي سقوط علامات الإعراب من اللهجات العربية الحاضرة (٢) .

(١) انظر تفصيل هذا العامل وآثاره في كتابنا « اللغة والمجتمع » صفحات ٤٨ — ٥٢ ، وكتابنا « علم اللغة » صفحات ٤٣ — ٤٦ (الطبعة الثانية) .
(٢) انظر تفصيل هذا العامل وآثاره في مؤلفاتنا الآتية : « اللغة والمجتمع » ٥٢ — ٥٤ ، « علم اللغة » (الطبعة الثانية) ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٤ — ٢١٦ ، « فقه اللغة » (الطبعة الثانية) ١١٦ — ١٢٨ .

الفصل الثالث

عوامل كسب الطفل للغة

يتوقف التقليد اللغوي عند الطفل على عوامل كثيرة من أهمها مايلي :
١ - وضوح الإحساسات السمعية وتمييزها بعضها من بعض :
يولد الطفل أصم ، ويمتد صممه هذا حتى اليوم الرابع أو الخامس ،
وحيثئذ تبدو لديه أمارات السمع . غير أن إحساساته السمعية تظل مهمة
إيهاما كبيرا ويظل عاجزا عن تحديد مصادرها حتى أواخر الشهر الرابع . ثم
ترتقي ارتقاء بطيئا حتى أوائل السنة الثانية ، ثم تدخل في دور النضج الذي
يستغرق أمداً غير قصير .

فبالموازنة بين هذه المراحل والمراحل التي تسير فيها لغة الطفل ، والتي
سبق الكلام عنها في الفقرة السابقة ، يتبين أن ظاهرة التقليد اللغوي تتبع
في رقيها ظاهرة الإحساس السمعي .

أما السبب في ذلك فلا يحتاج إلى بيان . فالطفل في تقليده يحاكي
ما يصل إليه عن طريق السمع . فمن البديهي أن تتوقف هذه المحاكاة على
وجود قدرة السمع لديه وأن تتأثر في ارتقاءها بما ينال هذه الحاسة من
دقة وتهذيب .

ولذلك نرى أن من يولد أصم ينشأ أبكم ، ولو كانت أعضاء
نطقه سليمة .

٢ - الحافظة والذاكرة السمعيتان . - ونعني بذلك القدرة على حفظ

الأصوات المسموعة وعلى تذكرها واستعادتها عند الحاجة إليها .
ولا تبدو هذه القدرة عند الطفل إلا بعد بضعة أسابيع بعد ولادته^(١) ؛
وتظل ضعيفة حتى أواخر الشهر الرابع ، ثم ترتقي ارتقاء بطيئاً حتى أوائل
السنة الثانية ، وحينئذ تبدأ مرحلة نضجها .

فهذا العامل يقطع في طريق نموه نفس المراحل التي يقطعها العامل
الأول ، وتصحبهما في سيرهما ظاهرة التقليد اللغوي : تظهر بظهورهما
وتنمو بنموهما .

أما وجه توقف التقليد اللغوي على هذه الظاهرة فلا يقل وضوحاً عن
توقفه على الظاهرة الأولى . وذلك أن الكلمة التي يحاكيها الطفل لا تصبح
جزءاً من لغته إلا إذا استطاع حفظها واستعادتها عند الحاجة إلى التعبير
عما تدل عليه .

٣ — فهم الطفل لمعاني الكلمات : — على الرغم من أن فهم الطفل
لمعاني الكلمات يسبق قدرته على النطق بها كما سبقت الإشارة إلى ذلك ،
فإن هذا الفهم شرط ضروري للتقليد اللغوي وعامل أساسي من عوامل
نموه . وقد عرضنا في الفقرة السابقة لأمر كثيرة تدل على توقف التقليد
اللغوي على هذا العامل ، وثبت أن كل ارتقاء في تفكير الطفل ودرجة
فهمه يتبعه ارتقاء في تقليده ونمو في محصوله اللغوي ، وتبين وجوه العلاقة
بين الأمرين^(٢) . ولا أدل على هذا التوقف وهذا التلازم من أن الطفل

(١) تظهر متأخرة عن موعد ظهور الذائكة البصرية (ذكر الأشياء المنظورة) .

(٢) انظر مميزات الدلالة في هذا الدور بصفحات ١٤٣ — ١٥١ وخاصة آخر

الذى يولد مصاباً بجنون يحول بينه وبين فهم معانى الكلمات ينشأ أبكم ولو كانت أعضاء سمعه ونطقه سليمة .

فالعوامل الثلاثة السابقة مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ؛ والتقليد فى اللغة متوقف عليها مجتمعة فى نشأته وفى تطوره . فعدم ظهوره قبل الشهر الخامس يرجع سببه إلى عدم وجودها قبل هذه السن ؛ وضعفه فى مرحلة « التمرينات النطقية » يرجع سببه إلى ضعفها فى هذه المرحلة ؛ وقوته فى المرحلة التالية (مرحلة التقليد اللغوى) مدين بها الطفل لقوتها فى هذا الدور .

غير أنه قد يحدث عند بعض الأطفال أن يتخلف التقليد عن هذه العوامل الثلاثة . فقد لوحظ أن بعض الأطفال يفهمون فى سن مبكرة كل ما يقال لهم (وفى هذا دليل على توافر العوامل الثلاثة توافراً كاملاً) ، ومع ذلك لا تظهر لديهم بوادر المحاكاة اللغوية إلا فى السنة الثالثة أو الرابعة أو الخامسة . ولوحظ كذلك أن بعض الأطفال يتقدمون كثيراً فى السن ولا يتكلمون إلا بمعالجة واستخدام وسائل غير طبيعية مع سلامة أعضاء نطقهم وسمعهم وقواهم الفكرية ، ومع أن سلوكهم فى مرحلة بكمهم هذه يدل على فهمهم لما يوجه إليهم أو يقال حولهم من حديث ، ولوحظ أن هذا التأخر اللغوى يتبعه غالباً تأخر فى المشى عند الطفل .

ويرجع فى الغالب سبب هاتين الظاهرتين معاً (تأخر الكلام وتأخر المشى) إلى خمول محلى فى أعضاء النطق والحركة ، أو كسل طبيعى عام ، أو تراخى الطفل وقلة نشاطه وضعف رغبته فى الاشتراك فى الحياة الاجتماعية . ولهذا يجدر أن نضيف إلى هذه العوامل الثلاثة عاملاً رابعاً ، وهو نشاط الطفل الحيوى وقوة عزمه وإرادته ورغبته فى الاشتراك فى حياة الحياة .

الفصل الرابع

أثر النظر في التقليد اللغوى

ترى طائفة من الباحثين — على رأسها الأستاذ « أنوفروو كز Onufrowicz » — أن لحاسة النظر دخلاً كبيراً في التقليد اللغوى ، وأن رؤية الطفل لشفتى المتكلم وحركاتهما ، وعمله على محاكاة هذه الحركة ، وإخراجه الصوت الذى يتلاءم معها ، كل ذلك يساعده على إجادة عملية التقليد ويذلها له ، وأن هذه الرؤية لاتقل أثراً بهذا الصدد عن العوامل الثلاثة التى ذكرناها فى الفصل السابق .

وأهم الأدلة التى يقدمها هؤلاء على صحة نظريتهم ترجع إلى مايلي :

١ — أن الطفل فى مبدأ هذه المرحلة لا يستطيع محاكاة صوت يصدر من متكلم غير مواجه له . وهذا دليل على توقف التقليد اللغوى فى مراحل الأولى على الأقل على رؤية شفتى المتكلم وملاحظة حركاتهما .

٢ — أن الأطفال فى مرحلة « التمرينات النطقية ^(١) » وهى المرحلة السابقة لمرحلة التقليد اللغوى ، يوجهون اهتماماً كبيراً إلى ملاحظة شفتى المتكلم وحركاتهما ، ويحركون شفاههم فى صورة يحاولون بها محاكاة ما رأوه بدون أن يلفظوا صوتاً ما . وهذا يدل على أن محاكاة الطفل للآثار المرئية للصوت تسبق تقليده للصوت نفسه ، وتتمّنه على هذا التقليد ، وتتهيأ له عنصراً هاماً من عناصره .

٣ — أن أول كلمات يقلدها الطفل هى الكلمات التى تكثر فيها

(١) انظر ص ١٢٨ وتوابعها .

الحروف الشفوية ، وهى الحروف التى تخرج من الشفتين ويقتضى نطقها تحركهما حركات ظاهرة مرئية تصل إلى الطفل عن طريق حاسة البصر : «بابا ، ماما ... الخ» . وفى هذا دليل على أهمية النظر فى التقليد اللغوى ، وخاصة فى المراحل الأولى لهذا التقليد .

٤ — أن الطفل الأكمه (الذى يولد أعمى) يقضى فى كسب اللغة عن طريق التقليد مدة أطول من المدة التى يقضىها فى العادة طفل بصير أو طفل طرأت عليه هذه العاهة بعد أن قطع قسما من مرحلة التقليد اللغوى . فلنظر إذن دخل كبير فى سير هذا التقليد وتخفيف أعبائه وتيسير عناصره .

٥ — أن الأطفال الذين يولدون صما يمكن تعليمهم النطق عن طريق محاكاة حركات المرئية التى تتحرك بها أفواه المتكلمين وشفاههم . فلنظر إذن أهمية كبيرة فى عملية التقليد اللغوى ، حتى أنها قد تتم أحيانا بمساعدة النظر وحده وتستغنى استغناء تاما عن السمع .

وقبل أن نعرض لقيمة هذه الأدلة ، يجدر بنا أن نبين أن النظرية نفسها قائمة على أساس غير سليم .

وذلك أن عملية التقليد اللغوى يتوقف نجاحها على مبالغ مطابقتها للأصل الذى تحاكيه ، وأن هذه المطابقة لا يصل إليها الطفل لأول وهلة ، بل تقتضيه معالجة صوته والعمل بالتدريج على إصلاح ما عسى أن يكون قد وقع فيه من أخطاء ، كما تقدم بيان ذلك ^(١) . ويتاح للطفل هذا الإصلاح بفضل إحساسه بالصوت الذى يلفظه والموازنة بينه وبين الصوت الذى سمعه أو بينه وبين ما يذكره عن هذا الصوت . ولو كان الطفل يعتمد فى تقليده

(١) انظر آخر صفحة ١٣١ — ١٣٥ .

اللغوى على محاكاة ما يراه من حركات الشفتين ، كما تقول هذه النظرية ،
لما استطاع سبيلا إلى هذا الإصلاح . لأنه لا يمكنه أن يرى كيف تتحرك
شفتاه هو ، فلا يستطيع أن يعرف إن كانت حركاتهما قد جاءت مطابقة
للحركات التي رآها أم غير مطابقة لها ، ولا يستطيع تبعا لذلك أن يحدد
مواطن الخطأ تحديداً دقيقاً ولا أن يصل إلى مطابقة صحيحة .

هذا إلى أن معظم الأصوات اللغوية تعتمد في مخارجها على حركات
غير مرئية تؤديها أعضاء غير ظاهرة كحركات الجوف والحلق والحنك
واللسان . فليس في اللغة العربية مثلاً إلا أربعة أصوات شفوية (الفاء والباء
والميم والواو) ، بينما تشتمل على أربعة وعشرين صوتاً من الأنواع الأخرى .
فلو كان للنظر دخل ما في التقليد اللغوى لتعذر على الطفل أو صعب عليه
محاكاة قسم كبير من أصوات لغته ، أو لكانت محاكاته للأصوات الشفوية
أدق من محاكاته لما عداها . وكلتا هاتين النتيجةين لا تتفق مع الواقع في شيء .

وأما الأدلة التي يعتمد عليها أصحاب هذه النظرية والتي سبق
تلخيص أهمها ، فبعضها يتضمن حقائق غير مسلم بها أو غير صحيحة ،
وبعضها لا يدل دلالة قاطعة على ما يذهبون إليه ، وبعضها يظهر من تحليله
أنه دليل عليهم لا لهم :

١ — فأما ادعاؤهم أن الطفل في أول مرحلة التقليد اللغوى لا يستطيع
محاكاة صوت يصدر من متكلم غير مواجه له ، فلا يتفق مع الواقع في شيء .
إذ الحقيقة أن الطفل في فاتحة هذه المرحلة كثيراً ما يحاكي أصواتاً وكلمات
لا يرى مصدرها أو يبعد مصدرها عنه بحيث لا يستطيع أن يرى حركات

فمه وشفتيه ، ولا تقل محركاته إياها في جودتها عن محركاته لما يصدر عن شخص مواجه له .

٢ — وأما ما يوجهه الطفل في مرحلة « التمرينات النطقية » من اهتمام بملاحظة شفتي المتكلم ، فليس ذلك ناشئاً عن رغبته في تقليد حركاتهما كما يزعم أصحاب هذه النظرية ، وإنما ينشأ عن رغبته في الوقوف على مصدر الصوت . وهذه الرغبة فطرية قائمة على غريزة الاستطلاع عند الطفل ، وتبدو حيال جميع الأصوات ، سواء في ذلك أصوات الأناسي والحيوانات والأشياء ، وتظهر أماراتها لديه من الشهر الرابع ، أى في نفس المرحلة التي تبدأ فيها « التمرينات النطقية » .

هذا إلى أن الطفل في هذه المرحلة يميل إلى التحديق في كل ما يتحرك أمامه ، ويتبعه بنظره مادام متحركاً ، لا لرغبته في تقليد حركته ، بل لجرد رغبته في رؤية الحركة وتتبعها . وهذا ضرب مما يسميه علماء النفس « ألعاب الحواس » عند الطفل^(١) . وهو قائم كذلك على غريزة حب الاستطلاع . فملاحظة الطفل لشفتي المتكلم في أثناء تحريكهما لا تختلف في الباعث عليها عن ملاحظته لأية هيئة تتحرك أمامه .

٣ — وأما ما يعمل الأطفال أحياناً ، عقب ملاحظتهم لشفتي المتكلم ، من تحريك لشفاههم في صورة يحاولون بها تقليد ما رأوه يدون أن يلفظوا صوتاً ما ، فقد دلت الملاحظات على أن هذه الظاهرة لا تبدو لديهم إلا حوالى الشهر السابع ، أى في مرحلة « التقليد اللغوي » نفسها أو قبلها بأمد يسير . فالتفسير المعقول إذن لهذه الظاهرة هو أن الطفل في هذه المرحلة المبكرة

(١) انظر كتابنا في التربية ، فصل اللعب ، صفحتي ٣٠ ، ٣١ .

نوعاً ما يحاول محاكاة الأصوات الجهرية التي يسمعها بأن يلفظها في أصوات خفية غير مسموعة ؛ ومحاولته هذه هي التي تجعل شفثيه تتحرر كان حركات مطابقة لحركات شفثي المتكلم أو مشبهة لها . فليسنا إذن بصدد محاكاة مقصودة لحركات الشفثين ، بل بصدد محاولة لمحاكاة الصوت المسموع محاكاة خفية يصحبها حتماً حركات الشفثين في صورة غير مقصودة بالذات .

٤ - وأما زعمهم أن أول كلمات يقلدها الطفل هي الكلمات التي تكثر فيها الحروف الشفوية (وهي الحروف التي تخرج من الشفثين و يقتضى نطقها تحررهما حركات ظاهرة مرئية تصل عن طريق حاسة النظر) فزعم غير صحيح . فقد دلت المشاهدات على أن الفوج الأول من كلمات الطفل يتألف من أصوات متنوعة الخارج والصفات^(١) .

٥ - وأما ما يظهر لدى الطفل الأكمه من ضعف في التقليد اللغوي وطول في المدة التي يقضيها في كسب لغته بالقياس إلى الطفل البصير ، فلا يرجع سببه إلى عدم رؤية الحركات التي تبدو على شفثي المتكلم كما يدعى أصحاب النظرية التي نحن بصدددها ، وإنما يرجع إلى صعوبة فهمه لمعاني ما يسمعه من كلمات . وذلك أن من وسائل هذا الفهم ما لا يتاح الانتفاع به إلا للبصير: كإشارة المتكلم في أثناء النطق بالكلمة إلى الشيء الذي تدل عليه ؛ وكالحركات اليدوية والجسمية التي تصحب الكلام عادة وتساعد على فهم ما يقصد إليه المتكلمون . وقد تقدم أن فهم معاني الكلمات عامل هام من عوامل التقليد اللغوي^(٢) . فعدم تمكن الطفل الأكمه من

(١) انظر صفحات ١٣٦ — ١٣٨ .

(٢) انظر صفحات ١٤٧ — ١٤٩ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .

الانتفاع بطائفة من وسائل هذا الفهم ، هو الذى يسبب ضعفه فى هذا الصدد ويؤدى إلى تأخره عن البصير .

٦ — وأما تعليم النطق للأطفال الذين يولدون صما عن طريق أخذهم بمحاكاة الحركات المرئية التى تتحرك بها أفواه المتكلمين وشفاههم ، فلا ينهض دليلا على صحة هذه النظرية لأسباب كثيرة :

منها أن تعلمهم النطق عن هذا الطريق لا يتاح إلا بتربية مقصودة فى مدارس خاصة ، وبمعالجة طويلة شاقة ، واستخدام وسائل صناعية كثيرة . فلو ترك الطفل الأصم منذ الولادة وشأنه لنشأ أبكم ، ولو لم يكن به أى عطب فى أعضاء نطقه^(١) . وفى هذا دليل على أن الطفل بطبعه لا يعتمد على نظره فى التقليد اللغوى ولا يحاول الانتفاع به إلا إذا أخذ بذلك أخذا ، ووجه إليه توجيهها مقصودا ، ودرب عليه بوسائل صناعية ومعالجة طويلة . وغنى عن البيان أن فى هذا دليلا على أصحاب هذه النظرية لا دليلا لهم .

ومن هنا أن تعليم الأصم الكلام عن هذا الطريق لا يمكن الشروع فيه قبل سن الثامنة أو التاسعة ، أى بعد انتهاء مرحلة « التقليد اللغوى » ؛ أما قبل ذلك فكل مجهود يبذل فى هذا السبيل يذهب أدراج الرياح . وفى هذا دليل على أن الطفل لا يتجه مطلقا ، فى أثناء مرحلة التقليد اللغوى ، إلى الانتفاع بنظره فى المحاكاة اللفظية ، حتى أنه ليتعذر حمله على هذا الانتفاع مهما بذلنا معه من مجهود . وفى هذا أقطع دليل على فساد النظرية التى نحن بصدد دحضها .

(١) وكذلك الطفل الذى يصاب بالصمم قبل أن يبلغ الرابعة ، أى قبل أن يقارب مرحلة الاستقرار اللغوى .

ومنها أن طائفة كبيرة من الأصوات اللغوية تعتمد في مخارجها على حركات غير مرئية تؤديها أعضاء غير ظاهرة كحركات الجوف والخلق والحنك واللسان . ولذلك لا يعتمد معلمو الصم على الإحساسات البصرية وحدها ، بل يلجئون كذلك إلى وسائل أخرى كثيرة ، فيحاولون مثلاً أن يحس تلاميذهم كمية الهواء الخارجة من فم المتكلم ، أو يطلبون اليهم أن يضعوا أيديهم على حلقومه أو صدره أو طرف أنفه أو قمة رأسه . . . حتى يتاح لهم ، عن طريق حواس أخرى غير النظر الذي ظهر عدم كفايته في هذا السبيل ، إدراك الذبذبات الخاصة التي يحدثها كل حرف في أثناء لفظه والتي تساعد على تمييزه والنطق به . وحتى الحروف الشفوية نفسها لا يمكن للصم محاكاتها بمجرد نظرهم لما تؤديه في أثناء النطق بها شفاه أساتذتهم من حركات . وذلك لأن الإنسان لا يستطيع أن يرى كيف تتحرك شفاهه ؛ فلا يمكنه أن يعرف إن كانت حركاتها قد جاءت مطابقة للحركات التي يحاول تقليدها أم غير مطابقة لها ، ولا أن يحدد مواطن الخطأ تحديداً دقيقاً ، فيتعذر عليه الوصول إلى مطابقة صحيحة . ولذلك يلجأ معلمو الصم إلى وضع مرآة أمام تلاميذهم ليتمكنوا من رؤية الحركات التي تؤديها شفاههم ومن إصلاح ما عسى أن يكون بها من أخطاء بالقياس إلى الأصل الذي يأخذونهم بمحاكاته .

ومنها أن تعليم الصم الكلام لا يكفل بنجاح ما إلا مع النابهين الذين يمتازون بفرط النشاط وحدة الذكاء وصفاء ذهن وشدة الانتباه وقوة الإرادة ، وتحفزهم إلى ذلك رغبة ملحة في الكلام . وحتى هؤلاء أنفسهم ينتهي تعليمهم بنتائج ضئيلة ، ويخرجون بلغة ناقصة مشوهة .

أما من عدا هؤلاء فلا يؤتى تعليمهم هذا أية ثمرة يعتد بها ، ولا يمكن المعلمين ، مهما بذلوا من جهد ، أن يحولوا بينهم وبين لغة الإشارة المحيية إلى طائفتهم .

ومنها أن النتائج التي تتحقق في تعليم الصم الكلام ، يرجع قسط كبير من الفضل في تحقيقها إلى ما يسمونه « الانقراض السمعية » ؛ وهي إحساسات سمعية ضئيلة توجد لدى عدد كبير ممن يظن أن صممهم كامل . وقد تبين لمعلمي الصم أهمية هذه « الانقراض » فوجهوا معظم جهودهم إلى استغلالها والانتفاع بها في تعليم الصم الكلام .

الفصل الخامس

أساس التقليد اللغوى عند الطفل

يتبين مما ذكرناه فى الفصول السابقة أن التقليد اللغوى عند الطفل يعتمد على ميل فطرى مزود به ، وأن أعمال المحاكاة التى يتجه إليها الطفل بدافع من هذا الميل تنبعث عن قصد وإرادة ، وتشرف قواه الفكرية على أدائها ، وتنظيمها ، وإصلاح فاسدها ، وجعلها مطابقة للأصل ، وفهم مدلولها ، وحفظها ، واستخدامها فيما وضعت له ^(١) . فاعمال التقليد اللغوى عند الطفل لا تختلف فى أساسها عن ألعابه الراقية كألعاب الاستطلاع والحل والتركيب والتصوير والمقاتلة والصيد والألعاب العائلية والاجتماعية والصناعية والزراعية وهلم جرا ^(٢) فكلاهما يعتمد على ميل فطرى مزود به الطفل ويتجه ليه بدافع من هذا الميل ؛ واسكن كليهما كذلك ينبعث عن قصد وإرادة وتشرف قوى الفكر على أدائه وتنظيم عناصره .

غير أن طائفة من الباحثين على رأسها العلامة لودانتك LeDantec قد ذهبت فى هذا الصدد مذهبا آخر ؛ فزعمت أن التقليد اللغوى عند الطفل عملية آلية مجردة عن القصد والإرادة وعمل الفكر ، ولا تعتمد إلا على أمور جسمية خالصة .

وذلك أنهم يرون أن هناك رابطة طبيعية تربط أعضاء السمع عند الطفل فى هذه المرحلة بأعضاء نطقه فى صورة تجعل الأعضاء الأخيرة تلفظ

(١) انظر صفحات ١٣١ - ١٤٩ .

(٢) انظر هذه الألعاب فى كتابنا « فى التربية » صفحات ٢٩ - ٣٧ .

يشكل منعكس نفس الأصوات التي تحسها الأعضاء الأولى فالطفل يردد ما يسمعه بعملية لا دخل فيها لإرادة ولا قصد ولا تفكير، وبحركات تنبعث من تلقاء نفسها عند حدوث ما يثيرها كما تنبعث الأعمال المنعكسة .

وقد أوغل لودانتك في هذا السبيل حتى زعم أن أعضاء النطق وأعضاء السمع يؤلفان عند الطفل في هذه المرحلة جهازاً واحداً ترسل ناحية منه ما تستقبله الناحية الأخرى . — فهما أشبه شيء بجهاز المذياع (الراديو) الذي ينبعث من بعض أجزائه ما تلتقطه أجزاؤه الأخرى من أصوات . وطبيعة تركيبهما عند الطفل في هذه المرحلة مطابقة كل المطابقة — كما يقول لودانتك نفسه — لطبيعة تركيبهما عند البغاء وما إليها من الطيور .^(١)

ومن ثم يرى لودانتك أن أصوات التقليد اللغوي عند الطفل لا تختلف في أساسها عن أصوات «التعبير الطبيعي عن الانفعال» التي تكلمنا عليها في أول هذا الباب^(٢) . كلاهما في نظره فطري آلي يمتد لدخل فيه لإرادة ولا قصد ولا تفكير . وكلاهما ينبعث عن مثير خاص وعن مجرد وجود هذا المثير : فأصوات التعبير الطبيعي عن الانفعال يثيرها مجرد تلبس الجسم أو النفس بحالة انفعالية ما ؛ وأصوات التقليد اللغوي يثيرها مجرد التلبس بإدراك سمعي خاص . وكلاهما قائم على روابط طبيعية فطرية : فأولهما قائم على روابط طبيعية تربط أعضاء النطق بحالات الانفعال في صورة تجعل تلك الأعضاء تتحرك من تلقاء نفسها وتلفظ أصواتاً خاصة كلما وجدت حالة من هذه الحالات ؛ وثانيهما قائم على روابط طبيعية تربط أعضاء السمع بأعضاء النطق في صورة تجعل الأعضاء الأخيرة تردد من تلقاء نفسها ما يصل من أصوات لغوية إلى الأعضاء الأولى .

(١) انظر الأساس الذي تعتمد عليه المحاكاة عند هذه الفصيلة بصفحة ٢٠ .

(٢) انظر صفحتي ١١٥ ، ١١٦ .

هذا ، وبحسبنا في الدلالة على فساد هذه النظرية أن نواجهها ببعض ما ذكرناه فيما سبق من حقائق :

فقد ظهر لنا فيما سبق أن الطفل لا يردد الكلمة عند سماعه إياها كما يردد الببغاء ما يسمعه من أصوات ، بل يردها فاهما معناها فهما كاملاً أو ناقصاً من سياق الحديث وملاسات الأحوال . (١) وبعد أن يتم له حفظها وتستقر في متن لغته يلفظها وحده كلما أراد التعبير عما تدل عليه . وغنى عن البيان أن ظاهرة هذا شأنها ليست من الأعمال الآلية أو المنعكسة في شيء ، إذ لا يمكن أن يتم مثلها بدون تدخل الإرادة والتفكير .

وقد ظهر لنا فيما سبق أن الطفل لا يكتسب في هذه المرحلة عن طريق المحاكاة مفردات لغته فحسب ، وإنما يكتسب كذلك قواعدها المتعلقة بربط عناصر الجملة ، وترتيب أجزائها وتنظيم العبارات ، وتصريف المشتقات ، ومراعاة أزمنة الأفعال ، وإسنادها للضمائر والأسماء الظاهرة ، والتذكير والتأنيث ، والإفراد والجمع . . . وهلم جرا . (٢) ومن الواضح أن كسب الطفل لقواعد اللغة يقتضى عمليات فكرية وإرادية دقيقة ، ولا يمكن أن يتم شيء منه عن طريق آلى أو منعكس .

وقد ظهر لنا كذلك أن أول كلمات تبدو عند معظم الأطفال هي أسماء الذوات ، وتظهر بعدها الأفعال ، ثم الصفات ، ثم الضمائر ، ثم الحروف والروابط ، وأن السبب في هذا يرجع إلى أن الطفل يسير في ارتقائه اللغوى وفقاً لارتقاء فهمه . فدرجة نموه الفكرى في مبدأ هذه المرحلة لا تتيح له أكثر من فهم الكلمات الدالة على أمور حسية يمكن أن يشار إليها ،

(١) انظر صفحات ١٤٣ — ١٤٩ .

(٢) انظر صفحات ١٤٤ — ١٤٦ .

ولذلك اقتصر متن لغته في هذا الدور على أسماء الذوات . فإذا نما تفكيره أمكنه أن يدرك مدلولات الكلمات المعبرة عن أمور معنوية ، وحينئذ تظهر في لغته الأفعال (الدالة على الحدث والزمان) والصفات (الدالة على معنى تلبس به الذوات بشكل عارض) وما إليهما . ولما كانت الحروف والروابط أدق أنواع الكلمات مدلولاً لم يتم له فهمها إلا في أواسط هذه المرحلة أو أواخرها ، فتأخر ظهورها تبعاً لذلك ^(١) . وفي هذا أقطع دليل على تدخل التفكير والفهم في عملية التقليد اللغوي وعلى فساد ما يذهب إليه لودانتك . إذ لو كانت هذه العملية آلية أو منعكسة قائمة على مجرد الارتباط بين جهازى النطق والسمع كما يزعم لودانتك لردد الطفل جميع ما يصل إلى سمعه من مفردات ، ولظهرت جميع أنواع الكلمة في لغة الطفل مرة واحدة .

وقد ظهر لنا كذلك أن الطفل الذى يولد مصاباً بجنون يحول بينه وبين فهم معانى الكلمات ينشأ أبكم ولو كانت أعضاء سمعه ونطقه سليمة ^(٢) . ولو كانت عملية التقليد آلية أو منعكسة على الوجه الذى يزعمه لودانتك لما حال الجنون دون تحققها ؛ إذ الجنون لا يحول دون تحقق هذا النوع من الأعمال .

وقد ظهر لنا كذلك أن الطفل فى مبدأ هذه المرحلة يلفظ الكلمات التى يحاكيها لفظاً خاطئاً بعيداً كل البعد عن الأصل الذى يحاكيه ، وأنه لا ينفك يصلح من فاسد نطقه شيئاً فشيئاً حتى يستقيم له الكلام ^(٣) .

(١) انظر صفحات ١٤٧ — ١٤٩ .

(٢) انظر صفحتى ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٣) انظر صفحات ١٣١ — ١٣٤ .

ولا شك أن ظاهرة هذا شأنها في التطور تقتضى تدخل الإرادة والتفكير ،
ولا يعقل أن تكون قائمة على الأساس الآلى الذى يزعمه لودانتك .
وقد ظهر لنا كذلك أن الطفل الذى يسوده الحمول ، وتعوزه قوة العزم
والإرادة ، وتضعف رغبته فى الاشتراك فى حلبة الحياة ، يتأخر كثيرا فى
التقليد اللغوى وفى كسب لغته عن الأطفال العاديين ^(١) . ولو كانت عملية
التقليد عملية آلية أو منعكسة على الوجه الذى يراه لودانتك ما حال هذا
الحمول دون تحققها ، ولظهرت كلما وجد مشيرها السمعى بدون توقف على
عزم ولا إرادة ولا نشاط حيوى .

وقد ظهر لنا كذلك أن الطفل الذى يسوده الحمول ، وتعوزه قوة العزم
والإرادة ، وتضعف رغبته فى الاشتراك فى حلبة الحياة ، يتأخر كثيرا فى
التقليد اللغوى وفى كسب لغته عن الأطفال العاديين ^(١) . ولو كانت عملية
التقليد عملية آلية أو منعكسة على الوجه الذى يراه لودانتك ما حال هذا
الحمول دون تحققها ، ولظهرت كلما وجد مشيرها السمعى بدون توقف على
عزم ولا إرادة ولا نشاط حيوى .

(١) ٢٣١ — ٧٣١ تأليفه لهذا

(٢) ٢٥١ — ٧٥١ تأليفه لهذا

(٣) ٣٧١ — ١٦١ تأليفه لهذا

(١) انظر صفحة ١٥٧ .

الفصل السادس

مبلغ تمثيل الطفل في ارتقائه اللغوى

لنشأة اللغة الانسانية وتطورها

يذهب كثير من العلماء إلى أن المراحل التي يجتازها الطفل في أى فرع من فروع حياته تمثل المراحل التي اجتازها النوع الإنسانى في هذا الفرع l'Ontogenèse reproduit la Phylogenèse . ويطلق على هذه النظرية اسم نظرية التلخيص أو نظرية هيكل Haekel (١) . وعلى هذه النظرية اعتمد كثير من علماء اللغة في تأييد آرائهم بصدد نشأة اللغة الانسانية وتطورها .

وقد تكلمنا بتفصيل في الباب الأول عن أهم هذه الآراء وناقشناها (٢) . فحسبنا هنا أن نشير إليها مبينين وجه اعتمادها على الظواهر المتعلقة بتطور اللغة عند الطفل .

١ - تقدم أن معظم العلماء يذهبون الى أن اللغة الإنسانية قد نشأت من أنواع التعبير الطبيعى ، وأن الإنسان قد افتتح هذا السبيل بمحاكاة أصواته الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعال) وأصوات الحيوان والأشياء (٣) .

(١) يرجع الفضل في نشرها وتمكيتها إلى هيكل الألمانى ولذلك نسبت إليه ،

وإن كان قد قال بها من قبله العلامة Serres

V. Traité de Psychologie, par Dumas et collaborateurs, p. 32.

(٢) انظر صفحات ٣١ - ٣٤ ، ٤٠ - ٤٩ .

(٣) انظر صفحات ٣١ - ٣٤ .

ومن أهم الأدلة التي يعتمدون عليها في تأييد هذه النظرية ان الطريق الذي ترسمه لنشأة اللغة الانسانية يتفق مع الطريق الذي يسلكه الطفل في تعبيره . فقد ظهر مما تقدم أن أول ما يظهر من أنواع التعبير المقصود عند الطفل هو محاكاة التعبير الطبيعي عن الانفعال ، ثم تظهر بعده محاكاة أصوات الحيوان والأشياء للدلالة على مصادرها أو على أمور تتعلق بها ، ثم تظهر بعدها محاكاة الكلمات (١) .

٢ — تقدم أن معظم علماء اللغة يذهبون إلى أن الكلام الإنساني كان يعتمد في المبدأ اعتماداً كبيراً على الإشارات اليدوية والجسمية التي كانت تصحبه فكل ناقصه وتوضح مدلوله وتمثل حقائقه ، ثم أخذ يستغنى شيئاً فشيئاً عن هذا المساعد حتى كاد يستقل بالتعبير (٢) .

ومن أهم الأدلة التي يعتمدون عليها في تأييد هذه النظرية أن المراحل التي ترسمها تتفق مع المراحل التي تسير فيها لغة الطفل . فقد ظهر مما تقدم أن الطفل ، في مبدأ مرحلته الكلامية ، يعتمد اعتماداً كبيراً على لغة الإشارات فيميزجها بلغته الصوتية لتحديد مدلولاتها وتوضيح مبهمها وتكملة نقصها وتمثيل حقائقها (٣) .

٣ — تقدم أن بعض العلماء يذهبون إلى أن اللغة الإنسانية اجتازت ، فيما يتعلق بتطور أصواتها ، ثلاث مراحل : « مرحلة الصراخ » التي كانت فيها أصوات اللغة شبيهة بأصوات الحيوان والأشياء ومظاهر الطبيعة ؛ ثم « مرحلة المد » وفيها ظهرت أصوات اللين في اللغة الانسانية ؛ ثم « مرحلة المقاطع » وفيها ظهرت الأصوات الساكنة (٤) .

(١) انظر صفحات ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، وآخر ١٤٢ وأول ١٤٣ .

(٢) انظر صفحتي ٣١ ، ٣٢ .

(٣) انظر صفحتي ١٥٠ ، ١٥١ .

(٤) انظر صفحات ٤٠ — ٤٢ .

ومن أهم الأدلة التي يعتمدون عليها في تأييد هذه النظرية أن المراحل التي تذهب إليها بصدد التطور الصوتي في اللغة الانسانية تتفق مع المراحل التي يجتازها الطفل في هذه السبيل . فقد ظهر مما تقدم أن أول أصوات تظهر لدى الطفل هي الأصوات المبهمة . ثم تتلوها أصوات اللين ، وأن الأصوات ذات المقاطع لا تكثر في لغته إلا في «مرحلة التمرينات النطقية» (١) .

٤ — تقدم أن معظم العلماء يذهبون إلى أن اللغة الانسانية قد بدأت بألفاظ دالة على معان جزئية وأن الألفاظ الدالة على المعاني الكلية لم تظهر إلا بعد ارتقاء اللغة ونهضة التفكير الإنساني (٢) .

ومن أهم الأدلة التي يعتمدون عليها في تأييد نظريتهم أنها تتفق مع مراحل التطور اللغوي عند الطفل . فقد تبين مما تقدم أن أول كلمات تظهر عند الطفل هي أسماء الذوات الحسية ثم تظهر بعدها الكلمات الدالة على معان كلية (٣) .

٥ — تقدم أن بعض علماء اللغة يذهبون إلى أن الصفة هي أول ما ظهر في الكلام الإنساني ، ثم ظهرت أسماء الذوات ثم الأفعال واختتمت مراحل الارتقاء بظهور الحروف (٤) .

ومما يعتمد عليه هؤلاء العلماء في تأييد نظريتهم موضوع التطور اللغوي عند الطفل . غير أن هذا التطور لا يؤيدهم فيما يتعلق بأسبقية الصفات على أسماء الذوات . فقد ظهر مما تقدم أن أسماء الذوات هي أول ما يظهر في لغة الطفل ثم تتلوها الأفعال والصفات (٥) .

(١) انظر صفحات ١٢٦ — ١٢٨ ، وما تحيل عليه هذه الصفحات ، وانظر كذلك الخاصة الرابعة من خواص الأصوات اللغوية للطفل في مرحلة التقليد بصفحة ١٣٥ .
(٢) انظر آخر ص ٤٢ وأول ٤٣ وما تحيل عليه التعليقات .
(٣) انظر صفحات ١٤٧ — ١٤٩ . (٤) انظر آخر صفحة ٤٣ و صفحة ٤٤ .
(٥) انظر صفحات ١٤٧ — ١٤٩ .

ولذلك يعتمدون في هذه النقطة على أمور تتعلق بأصول الكلمات في اللغات الهندية — الأوروبية كما سبقت الإشارة إلى ذلك (١). ويرون من جهة أخرى أن أسبقية الأسماء على الصفات في الطفولة ليست عامة عند جميع الأطفال ؛ بل إن بعضهم ليفتح نطقه بكلمات دالة على صفات ، ولا تظهر لديه الأسماء إلا فيما بعد . وفي ذلك يقول العلامة بريير Preyer : « ليس صحيحاً ما يذهب إليه كثير من الباحثين من أن ظهور الأسماء سابق لظهور الصفات عند جميع الأطفال . فقد لاحظت أن أول كلمة لفظها ابني (وكانت سنه إذ ذاك ثلاثة وعشرين شهراً) كانت صفة فقد قال Hess يقصد Chaud أى ساخن ، (للتعبير عن أن لبنه ساخن لا يستطيع شربه) ثم ظهرت لديه الأسماء بعد ذلك » . وقد لاحظ العلامة تين Taine وآخرون بعض ظواهر من هذا القبيل (٢) .

٥ — تقدم أن العلامة شليجيل وأعضاء مدرسته يذهبون إلى أن اللغات الإنسانية الأولى كانت « عازلة » أى لا تنصرف فيها الكلمات ولا ترتبط فيها عناصر الجملة بعضها ببعض بروابط ملفوظة (٣) .

ومن الأدلة التي يعتمدون عليها في تأييد نظريتهم تطور اللغة عند الطفل . فقد ظهر مما تقدم أن لغة الطفل تبدو في أوائل مرحلة التقليد عارية من الصرف والاشتقاق والتنظيم وربط عناصر الجملة بعضها ببعض (٤) .

(١) انظر صفحة ٤٤ .

(٢) V. Ribot, op, cit, 84, 85

(٣) انظر صفحات ٤٥ — ٤٨ .

(٤) انظر صفحتي ١٤٥ ، ١٤٦ .

الفصل السابع

الانتفاع بحقائق هذا الباب في التربية والتعليم

ليس بعزيز على المتأمل في البحوث النظرية السابقة أن يستخلص منها عدة قواعد عملية للتربية والتعليم اللغويين . وسنذكر فيما يلي بعض نماذج من هذا القبيل :

١ - تقدم أن أول كلمات يستطيع الطفل النطق بها هي الأسماء الجامدة التي تدل على أمور حسية يمكن أن يشار إليها ، وتظهر بعدها الأفعال ثم الصفات ثم الضمائر ثم الحروف ؛ وأن هذا الاتساع التدريجي في متن لغته يسير جنبها جنب مع اتساع قدرته على فهم الكلمات ^(١) .

فالواجب على المربين والمعلمين أن يترسموا هذا الارتقاء الطبيعي ؛ فلا يحملوا الطفل على النطق بالحروف مثلاً في المرحلة التي لا يستطيع فيها فهم مدلولها ، ولا يكلفوه استظهار قطعة مشتملة على معان كلية في السن التي لا تسمح له فيها قواه العقلية إلا بفهم الجزئيات ... وهلم جرا .

٢ - تقدم أنه في مبدأ مرحلة « التقليد اللغوي » ، تسيطر على لغة الطفل علاقة المشابهة ، فيصرف كل الأفعال تصريفه للأفعال التي يعرفها ، ويسمى كل الحيوانات باسم الحيوان الذي حفظ اسمه من قبل ، فيطلق مثلاً على البقرة اسم الحصان لما بينهما في الشبه في القوائم والصورة العامة ... وما إلى ذلك ^(٢) .

(١) انظر صفحات ١٤٧ - ١٤٩ . (٢) انظر ص ١٤٥ .

فالواجب على المربين أن يعملوا جهدهم على محاربة هذه النزعة وعلى وقاية لغة الطفل من أضرارها . وذلك بتربية قوة الملاحظة لديه ، وتوجيه نظره بشتى الوسائل إلى ما بين الحسرات المتشابهة من وجوه الاختلاف ، والعمل على إصلاح ما يبدر منه من خطأ لغوى بمجرد صدوره منه حتى لا يتكرر فيرسخ لديه ويعتاده .

٣ — تقدم أن كثيراً من الألفاظ الغريبة التى تصدر من الطفل فى أوائل « مرحلة التقليد اللغوى » ، والتى يتبادر إلى الذهن أنها من مخترعاته ، ليست فى الواقع إلا محاكاة صحيحة للكلمات التى يعتمد بعض الملازمين له أن ينطقوا بها نطقاً محرفاً لتدليله ومداعبته (١) .

فالواجب على القائمين بشئون الطفل فى هذه المرحلة أن يتجنبوا هذه العادة السيئة ؛ فإن محادثتهم إياه بالكلمات المحرفة ترهقه عسراً من أمره ، وتشغل قسطاً كبيراً من وقته الثمين فى حفظ ألفاظ لا قيمة لها فى مستقبل حياته ، وتحمله على بذل مجهود فى أمور من شأنها أن تفسد نطقه وتعوق سيره اللغوى .

٤ — تقدم أنه فى « مرحلة التقليد اللغوى » يبلغ ميل الطفل إلى محاكاة الكلمات وقدرته على سرعة تقليدها أقصى ما يمكن أن يبلغه ، وأنه لذلك يستطيع أن يتعلم بسهولة أية لغة أجنبية إذا أتيح له الاختلاط بأهلها بدون أن يكلفه ذلك مجهوداً يذكر ، بل بدون أن يشعر فى أثناء محاكاته لحديثهم أنه يتعلم شيئاً جديداً (٢) .

فالواجب على المربين أن ينتهزوا هذه الفرصة الثمينة ليزودوا الطفل

(١) انظر آخر ١٣٣ وأول ١٣٤ .

(٢) انظر صفحات ١٣٨ — ١٤٢ .

بما عسى أن يحتاج إليه في حياته المستقبلية من لغات أجنبية ؛ وذلك بأن يشاركوا معهم في تربيته المنزلية حاضنات أجنبيات ، أو بأن يبعثوا به إلى دور حضانة أو رياض أطفال تشرف عليها حاضنات يتكلمن لغة حية غير لغة أسرته ؛ على أن يتخذوا وسائل الحيلة اللازمة حتى لا يترتب على ذلك أى أثر سيء في شعور الطفل بقوميته واعتزازه بوطنه واحترامه لنظم أمته وتقاليدها وعرفها الخلقى .

٥ — تقدم أن الطفل في « مرحلة التقليد اللغوى » تغلب عليه لهجات الملازمين له والمشرفين على تربيته ^(١) .

فالواجب على الآباء أن يعنوا بانتقاء الحاضنات ، فيختاروهم ممن حسن نطقهم ، وسمت أساليهم ، وسامن من العي والفأفأه والتأتأة واللثغة ... وما إلى ذلك من العيوب .

٦ — تقدم أن الطفل في « مرحلة الاستقرار اللغوى » التى تبدأ من السادسة أو السابعة أو الثامنة تبعا لاختلاف الأفراد ، ترسخ لديه العادات اللغوية ويستقر نطقه وشكل حديثه وصفات تراكيبه وأساليبه ، وأن كل أولئك تجعل تعلمه لغة أجنبية من أشق الأعمال عليه وعلى مربيه ^(٢) .

ومن هذا يظهر ما وقعت فيه نظامنا المدرسية من خطأ إذ قررت تعلم اللغة الأجنبية على تلاميذ المدارس الابتدائية ، وسنهم تتردد بين الثامنة والثالثة عشرة . فالطفل كما قلنا لا يكاد يتجاوز السابعة من عمره حتى يفقد ما كان لديه من ميل فطرى إلى تقليد الأصوات ، فتكليفه في هذه المرحلة تعلم لغة أجنبية يقتضيه بذل مجهود جبار لم يقو بعد على بذله . وغنى عن البيان أن

(١) انظر ص ١٤٧

(٢) انظر ص ١٥١

في إرغامه على بذل هذا الجهد إرهابا له وتعطيلا لنموه الجسمي والفكري .
هذا إلى أن الطفل في هذه المرحلة لا يمكن أن يدرك الفائدة التي تعود عليه
من تعلم لغة أجنبية ، بل لا يمكن أن يدرك مدلول «لغة أجنبية» (أى لسان
يتفاهم به شعب غير شعبه) : فلا يمكن أن يهتم بهذا التعليم لذاته ولا لما عسى
أن ينجم عنه من فوائد ؛ وبذلك يتجرد عمله عن الغاية ؛ ومتى تجرد العمل
عن الغاية أصبح من قبيل «الأشغال الشاقة» التي يحكم بها على المجرمين . — (١)
وفضلا عن هذا كله فإن ما يتعلمه من لغات أجنبية في هذا الدور يزاحم
المعلومات الأولية التي يتلقاها عن لغة بلاده ، فيعوق إلمامه بمفرداتها وأساسياتها
وقواعدها ؛ وفي هذا من الضرر ما لا يحتاج إلى بيان .

وقد فطن لهذا معظم الأمم الأوروبية والأمريكية فأرجأت تعليم اللغات
الأجنبية في مدارسها إلى مرحلة التعليم الثانوى .

٧ — تقدم أن عوامل التقليد في اللغة ترجع إلى أربعة أمور : وضوح
الإحساسات السمعية ؛ والقدرة على حفظ هذه الإحساسات وعلى تذكرها
عند الحاجة إليها ؛ وفهم معانى الكلمات ؛ ونشاط الطفل الحيوى الذى
يتمثل في عزمه وإراداته ورغبته في الاشتراك في حياة (٢) .

فينبغي للمربين أن يجعلوا هذه الحقائق نصب أعينهم ، وأن يعلموا أن
ما يبذلونه من جهد في سبيل التربية والتعليم اللغويين يتوقف نجاحه على
عنايتهم بهذه الأمور .

(١) انظر الفرق بين اللعب والعمل في كتابنا «في التربية» صفحات ٣٨ — ٤٥ .

(٢) انظر صفحات ١٥٥ — ١٥٧ .

فينبغي أن يعنوا بتربية حاسة السمع عند الطفل ، ووقاية أعضائها من كل ما يعوقها عن أداء وظائفها أداء كاملا ، وعلاجها مما عسى أن يكون بها من خلل طبيعي أو مكتسب .

وينبغي كذلك أن يوجهوا عنايتهم إلى النهوض بقوتى الحفظ والذكر عند الطفل وإلى تربية إرادته وإثارة نشاطه الحيوى ، وأن يعملوا على أن تكون مدلولات الألفاظ والجل التي يراد الطفل على محادثتها جلية في ذهنه واضحة تمام الوضوح .

انتهى

أهم المراجع

(أولاً) أهم المراجع العربية

كتاب الألفاظ	١ — ابن السكيت
الخصائص	٢ — ابن جني
المخصص	٣ — ابن سيده
أسباب حدوث الحروف	٤ — ابن سينا
الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها	٥ — ابن فارس
تهذيب كتاب الألفاظ لابن السكيت	٦ — التبريزي
فقه اللغة	٧ — الثعالبي
المزهر	٨ — السيوطي

(ثانياً) أهم المراجع الأفرنجية

1. Année Pédagogique
2. Année Psychologique
3. Baldwin : Le Developpement mental chez l' enfant et dans la race « trad. fr. »
4. Bally : Le Langage et la Vie
5. Berry : An Experimental study of Imitation
6. Bloch : Les Premiers stades du Langage de l'enfant « j. de Psych. 1921 »
7. Boas : Handbook of American Indian Languages, 2 vols, Washington
8. Brandenburg : Language development
9. Bréal : Mélange de Mythologie et de Linguistique
10. Brockelmann : Précis de Linguistique Sémitique «trad. fr.»
11. Claparède : Psychologie de l' Enfant . . . etc.
12. Darmesteter : La Vie des Mots
13. Darwin : L'Expression des Emotions « trad. fr. »
14. Darwin : L' Origine des Espèces « trad. fr. »

15. Dauzat : La Philosophie du Langage
16. Dauzat : La Vie du Langage
17. Delacroix : Le Langage et la Pensée
18. Dumas et collaborateurs : Traité de Psychologie
19. Gillieron et Roques : Etude de Géographie Linguistique
20. Ginneken : Principes de Linguistique psychologique
21. Grégoire : Petit Traité de Linguistique
22. Guillaum : L' Imitation chez l' enfant
23. Hermann-Paul : Etudes sur les changements phonétiques
24. Hovelacque : La Linguistique
25. Jespersen : Language; its nature, development, and origin
29. Jespersen : The Progress of Language.
27. Kohler : L' Intelligence des Singes Supérieurs « trad. fr. »
28. Leroy : Le Langage
29. Levy—Bruhl : Les Fonctions mentales dans les Sociétés primitives
30. Malinowski : Primitive Language
31. Mallery : Sign — Language among the North American Indians
32. Marichelle : L' Enseignement de la Parole aux sourd muets
33. Meillet : Comment les mots changent de sens (dans l' Annén Sociologique. T — IX, P. P. 3 — 33)
34. Meillet : Les Dialectes Indo—Européens
35. Meillet : Introduction à l' Étude Comparative des Langues Indo—Européennes
36. Meillet : Les Langues dans l' Europe Nouvelle
37. Meillet : Linguistique Historique et Linguistique générale
38. Meillet et Cohen (groupe de linguistes sous la direction de Meillet et Cohen) : Les Langues du Monde
39. Muller (Max) : The Science of Language
40. Muller (Max) : New Lectures on the Scienc of Language
41. Paulhan : La Double Fonction du Langage
42. Pawlowitch : Le Langage enfantin
43. Piaget : Le Langage et la Pensée chez l' Enfant
44. Renan : Histoire générale des Langues Sémitiques

45. Renan : L' Origine du Langage
46. Ribot : L' Evolution des Idées Générales
47. Roudet : Éléments de Phonétique générale
48. Rousselot : Les Modifications Phonétiques du Langage
49. Rousselot : Principe de Phonétique expérimentale
50. Roustan : Psychologie
51. Sapir (E) : Language (New York)
52. Saussure (De) Cours de Linguistique Générale
53. Sayce : Introduction to the Science of Language (2 vols)
54. Sayce : Principles of Comparative Philology
55. Sechehaye : Programme et Méthode de la Linguistique théorique
56. Sweet : The Practical Study of Language
57. Taine : Observations sur l' Acquisition du Langage par les Enfants (Revue Phil. 1876)
58. Tarde : Lois de l'imitation
59. Tylor : Early History of Man—kind
60. Tylor : Origin of Civilisation
61. Vannier : L' Esprit et les Mœurs d' une nation d' après sa Langue
62. Vendryès : Le Langage
63. Vendryès : Reflexion sur les lois phonétiques
64. Whitney : Language and the Study of Language
65. Wright : Lectures on the comparative grammar of the Semitic Languages

فهرس الكتاب

١	مقدمة
٥	الباب الأول : نشأة اللغة عند الانسان
٧	الفصل الأول : أنواع التعبير الإنساني
١٤	» الثاني : اختصاص الإنسان باللغة ومراكزها
٢٢	» الثالث : نشأة الكلام
٣٥	» الرابع : نشأة مراكز اللغة
٤٠	» الخامس : المراحل الأولى التي اجتازتها اللغة الإنسانية
٥٠	» السادس : فصائل اللغات
	» السابع : بعض ما يختلف فيه الفصيلتان السامية والهندية — الأوروبية
٧٢	» الثامن : وجوه الشبه بين هاتين الفصيلتين
٨٢	» التاسع : تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات
١١٣	الباب الثاني : نشأة اللغة عند الطفل
١١٥	الفصل الأول : أنواع الأصوات والتعبير في الطفولة
١٢٦	» الثاني : المراحل التي يجتازها الطفل في أصواته وتعبيراته
١٥٥	» الثالث : عوامل كسب الطفل للغة
١٥٨	» الرابع : أثر النظر في التقليد اللغوي
١٦٦	» الخامس : أساس التقليد اللغوي عند الطفل
	» السادس : مبلغ تمثيل الطفل في ارتقائه اللغوي لنشأة اللغة الإنسانية وتطورها
١٧١	» السابع : الانتفاع بحقائق هذا الباب في التربية والتعليم
١٨٠	أهم المراجع :

استدراك

الصفحة	السطر	الصواب	الصفحة	السطر	الصواب
٣	ما قبل الأخير	ونختم هذا الباب بخمسة فصول	٦٧	٧	آخر كلمة فيدجي
٤	٤	بين هذه الفصائل ؛ وفي الفصل	٧٣	٢	ومن الأفعال (قال، تم، رد)
		التاسع للعوامل التي أدت إلى	٨٢	٨	Lassen
		تشعبها على هذا الوجه	٨٣	٥	آخر كلمة ثالث يرى
٢٣	الأول من	فيلسوف إغريقي من المدرسة	٩٦	١	قد ترك في كل منها
	التعليق	اليونانية	١٠٢		السادس قبل
٢٦	آخر سطر	كثير من الغرائز الانسانية			الأخير
٢٩	السادس قبل	مثل اللغة الانسانية	١٠٥	١٣	آخر كلمة والتأليف الموسيقى
	الأخير		١٠٨	١٣ ، ١٢	فتستعير منها هذه اللغة كثيرا
٣٦	٨	حياته وبخاصة ما يتصل منها	١١٠	٩	تكلمنا عنها في الفقرة الثالثة من
٤١	ما قبل الأخير	وأصوات المد تفوق كثيرا	١١١		آخر سطري هذا الفصل
٤٧	آخر سطري	على الرغم من اختلاف أصولهم			ethnographiques . . . Juin
	التعليق	الشعبية			التعليق
٥٤	٧	آخر كلمة الذين	١١٢	٩	de l'inceste
٦٠	الثالث في	١٨٥٠ /	١٢٩	١٢	قد اتسع اتساعا
	التعليق		١٣٩		الثالث قبل إلى محادثة
٦٢	الثامن قبل	والبرمانية Birman			الأخير
	الأخير				

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

بعض كتب أخرى للمؤلف

- ١ — Contribution à une Théorie Sociologique de l'Esclavage.
- ٢ — Distinction entre la Femme et l'Homme dans l'Esclavage.
حصل بهما على شهادة الدكتوراه بدرجة الامتياز الأولى من جامعة السربون .
- ٣ — علم اللغة (الطبعة الثانية مزيده ومنقحة)
- ٤ — فقه اللغة (" " " ")
أول كتابين يطريهما رسميا بجمع فؤاد الأول للغة العربية ،
وقد تقرر تدريسهما بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول .
- ٥ — اللغة والمجتمع
- ٦ — المسؤولية والجزاء
- ٧ — الأسرة والمجتمع
صدرت هذه الكتب الثلاثة في مؤلفات « الجمعية الفلسفية المصرية »
- ٨ — في التربية ، بحث في عوامل التربية غير المقصودة (الطبعة الثانية مزيده ومنقحة) تقرر تدريسه بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول .
- ٩ — البطالة ووسائل علاجها (نال جائزة المباراة الأدبية لسنة ١٩٣٥)
- ١٠ — الاقتصاد السياسي (الطبعة الرابعة مزيده ومنقحة)
- ١١ — مواد الدراسة
- ١٢ — رغبات المؤتمر الدولي الخامس للتربية العائلية (مترجم عن الفرنسية)

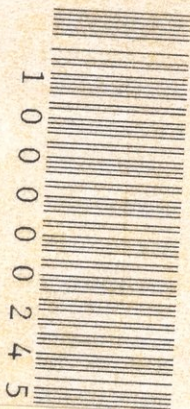
دار الفكر العربي

شارع القصر العيني (عمارة مارسيني) بالقاهرة تليفون ٥٦٤٦٧

أصدرت

- ١ — الطاقة الروحية : تأليف برجسون تعريب سامي الدروبي ٣٢
- ٢ — الميراث : للأستاذين معوض محمد ومصطفى ومحمد محمد سعفان ٢٠
- ٣ — الأزهر : للأستاذين عبد الحميد يونس وعثمان توفيق ١٨
- ٤ — السلام الاجتماعي : للأستاذ عبد المجيد نافع المحامي ٣٠
- ٥ — الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء :
تأليف ج. م. جويو تعريب الأستاذ سامي الدروبي ٣٥
- ٦ — رحلاتي في مشارق الأرض ومغاربها : للأستاذ محمد ثابت ٢٢
- ٧ — أمهات المؤمنين وأخوات الشهداء : للسيدة وداد سكاكيني ١٥
- ٨ — أقاصيص : لكبار الكتاب الانجليز المعاصرين
تعريب الأستاذين محمد بدران وإدوارد رياض ١٢
- ٩ — الكبرياء والهوى : تعريب الأستاذ محمد بدران ١٥
- ١٠ — نشأة اللغة عند الانسان والطفل : للأستاذ علي عبد الواحد وافي ٢٠
- ١١ — الحركة الفكرية في مصر : للدكتور عبد اللطيف حمزة ٥٠
- ١٢ — الأدب المصري الإسلامي : للدكتور محمد كامل حسين ٢٥
- ١٣ — الكميّ بن زيد : للأستاذ عبد المتعال الصعيدي ٢٠
- ١٤ — التعب : للأستاذ أبو مدين الشافعي ٢٠
- ١٥ — المجالس المستنصرية : للدكتور محمد كامل حسين ٢٥
- ١٦ — مصر والسيادة على السودان : للدكتور محمد فؤاد شكرى ٢٠
- ١٧ — العالم المفقود : للأستاذين محمد بدران وأحمد حلمي ١٢
- ١٨ — اللهجات العربية : للدكتور ابراهيم أنيس ٢٥

B 13231492
I 15095678



FEB 1974

P
105
W3
1947

27 JAN 1987

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

AUC - LIBRARY



DATE DUE

Samir Fouad (Alumni)

DEC 15 1987

27 DEC 1988

JAN 17 1989

A.U.C

7 OCT 1993

